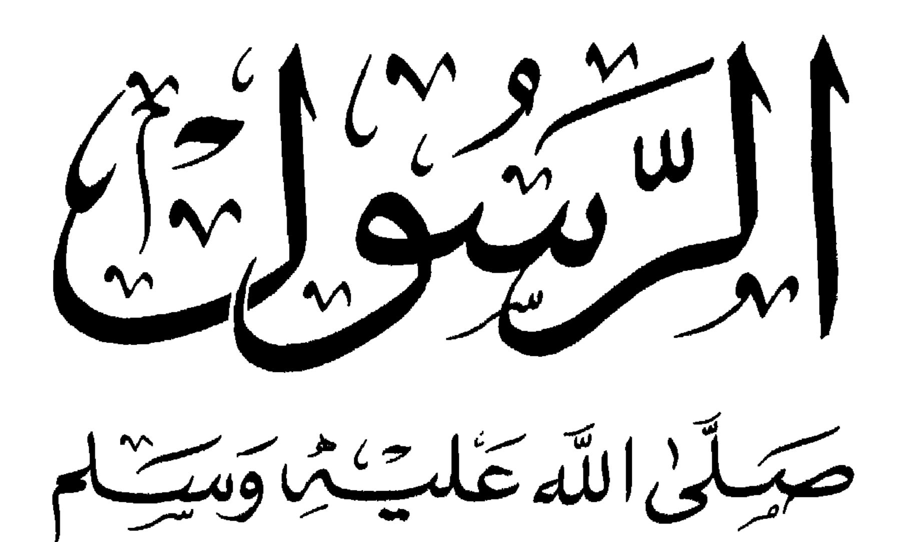


للإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الناشرون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت


الرسول
صلى الله عليه وسلم

رقم الإيداع

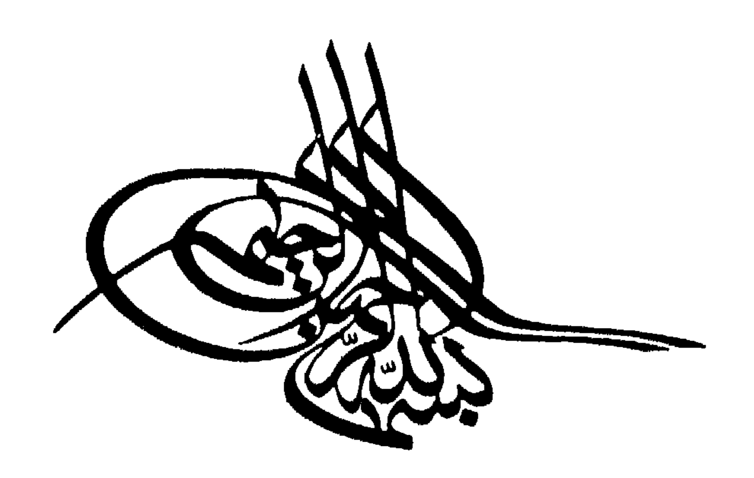
١٩٩٠/ ٧٥٧٤

I. S. B. N. 977 - 238 - 164 - 8

دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١١٨/٣٩٣٤٣١١ فاكسميلى ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ الرمز البريدى ١١٥١١ برقيا الكتاب
TELEX No 23081 23381 - 22181
ATT MR HASSAN EL ZEIN
FAX (202) 3924657

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشرين

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كورى - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣-٨٦١٧٩٢-٨٦ فاكسميلى ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب: ١١/٨٣٣٠ أو ١٣٥٢٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا: الكتاب
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL ZEIN
FAX (9611) 351433



جميع الحقوق محفوظة للناشر
دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، والداعين بدعوته الى يوم الدين .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً . وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً . » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة الكتاب

(١)

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ؛ في كثير من سوره ، يقول سبحانه :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً »(١) .

ويقول سبحانه :

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً »(٢) .

ويقول سبحانه :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ »(٣) .

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) النساء : ٨٠ .
(٣) آل عمران : ٣١ .

ومن أجل هـذه الصلة الالهية برسول الله ، (ص) ، أرشدنا الله سبحانه وتعالى — الى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً »(١) .

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهي عما نهانا عنه ، وهددنا اذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :

« وَمَا آتاكُمُ الرسولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ، واتَّقوا اللهَ ، إن اللهَ شَدِيدُ العِقابِ »(٢) .

أما السر في ذلك فهو :

١ — أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه :

« والنجمِ إذا هَوَى • مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى • وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى • إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى »(٣) .

٢ — كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في جميع أحواله حركة وسكونا ، اشارة ونطقا ، قلبا وقالبا ، يمثل القرآن الكريم ، وقد

---

(١) الأحزاب ٢١ .
(٢) الحشر ٧ .
(٣) النجم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

كان صلوات الله وسلامه عليه تطبيقا للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهرا وباطنا ، لقد كان قرآنا •

ولقد وصفته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وصفا دقيقا حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » •

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له اذ يقول :

« وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١) .

(٢)

والحق ، أننا حينما نريد أن نكون صورة واضحة تامة عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فان الطريق الوحيد لذلك : انما هو الاحاطة بالقرآن احاطة واضحة تامة ، والاحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان ، بل ليست بممكنة : فالقرآن في كل يوم يتفتح عن معان جديدة للانسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر : وهذه المعاني الجديدة : ـ انسانية عامة ، أو فردية شخصية ـ انما هي ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة •

والعكس أيضا صحيح ، فان المتدبر المتأمل في الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة ، يفهم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديدا ، وهذا الفهم انما هو تفسير وايضاح لجوانب من القرآن الكريم •

---

(١) القلم : ٤ •

لقد امتزج الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ــ كما قدمنا ــ روحا وقلبا وجسما ، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقا وتشريعا : فكان ، صلوات الله وسلامه عليه ، قرآنا يسير في الناس ، وكان القرآن روحا ينتقل ، وكان قلبا ينبض ، وكان لسانا ينطق بالهداية والارشاد .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصا كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الاسلامية القرآن ، لقد عمل على ذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الأمة فيقول سبحانه :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »(١) .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله .

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

« مثلي ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارا ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي » .

هذه هي صلة الرسول (ص) بربه ، وهذه هي صلته بأمته .

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه الى السماء بل وتجاوزها الى سدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، لقد ارتفع الى الأفق الأعلى

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

فانغمس في الأفق الأعلى وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به وهي الصلاة ، ثم ... ثم انبسط الى الارض سراجا منيرا ، رؤوفا رحيما ، هاديا ، يدعو الى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الى السماء وتجاوز بذلك النهايات الكونية ثم عاد الى الأرض لقد كان فعلا أدنى من قاب قوسين ، أقسم بالله لو صعدت الى السماء لما حاولت العودة الى الارض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نبي ورسول فهو متصل بالله دائما : انه في السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة . انه كان على حد تعبير القرآن : « بشرا رسولا » فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله : انه مع الناس بارادة الله وتوجيهه وأمره ، انه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، انه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعاني كلها يمكننا أن نقول : انه دائما مع الله ويمكننا أن نقول : انه ــ منذ اللحظة الأولى للبعثة ــ لم ينزل الى الارض قط ، وانما كان دائما مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه ، يقول (ص) :

« لست كهيئتكم ، أبيت عند ربي ... » .

(٣)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »(١) .

انه صلوات الله وسلامه عليه : « بشر » وما يجول في خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه « بشر يوحى اليه » .

---

(١) الكهف ١١٠ .

وما يتأتّى قط أن يوحي الله الى بشر الا اذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

فمنتهى القول فيـه أنه بشر   وأنه خـير خلق الله كلهم

(٤)

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه الآية الكريمة :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ »(١) .

يقف عند كلمة : (بشر) فيحاول التركيز عليها وتوجيه الانتباه كله اليها ، وتحويل الأنظار كلهـا نحوها ، فيتحدث عـن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع في هذا الاتجاه المنجرف اندفاعا لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى الي ».بل انه في اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى الي » ويهملها اهمالا .

انه ليس بنادر في العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وعن خطئه ـ معاذ الله ـ في الرأي ، وعن اصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه أو في كتابتـه مستنتجا ومستنبطا وحاكما ، وينسى في كل ذلك :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى »(٢) ، وينسى في كل ذلك :

« يوحى الي » ، وينسى : « لست كهيئتكم » ، وينسى :

« لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً » .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة ، كلهـا صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عـادل حاسم ، وأن الله سبحانه

---

(١) الكهف ١١٠ .

(٢) النجم ٣ .

وتعالى قد بيَّن للأمة الاسلاميــة أن رسوله صلوات الله وسلامه عليــه ــ وهو على صواب دائما ــ انما يتخذ الحل الذي يتناسب مع ما حــلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة ، وهو الحل الذي يتناسب مع طابع الرسالة الاسلامية العام :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(١) .

والله سبحانه ببيانه ذلك في هذه المواضع التي كان من الممكــن أن يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع العدالة الحاسمة ، فعدل عن ذلك الى الرأفة الرحيمة ... ان الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك ، انما يمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويبين أن منزع الرحمة انمــا هو الغالب عليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولم يلغ الله سبحانه اتجاها عاما سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية أقرها ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله ، فما كان صلوات الله وسلامه عليه يسير الا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

« وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ .. »(٢).

وما فعل الله في كل ما تمسك به المنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون الا بيان رحمة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ورأفته : أي أنــه سبحانه كان يبين في هذه المواطن فضله صلوات الله وسلامه عليه وأنه ــ كما وصفه سبحانه ــ : على خلــق عظيم ، والبون شاسع بين هــذه الوجهة الربانية ، وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها .

---

(١) الأنبياء ١٠٧ .
(٢) الشورى ٥٢ ، ٥٣ .

ولنضرب لذلك مثلا : ان الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيرا عــن قوله تعـالى :

« عَفا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ؟ »(١) .

ويقذفون مباشرة بقولهم : ان العفو لا يكون الا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : ان الأساليب العربية فيها من أمثال هــذا الكثير ، ومنها قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟

عفا الله عنك ، لمَ تعنّي نفسك في سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول :

رضي الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الارهاق ؟

ان الآية القرآنية من هذا الوادي .

وضم هذه الآية الكريمة الى اختهـا التي في سورة النور :

« فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِم فَأْذَنْ لِمَنْ شِئتَ مِنهُمْ »(٢).

تجد المعنى واضحا جليـا ، وهو أن الله سبحانه ، فوض الأمـر لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، في أن يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبي اذن معاتبا بهذه الآية ــ وحاشاه ــ بل كان (ص) مخيرا، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهــم لقعدوا ، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه في الاذن لهم ، انها آية مدح للرسول غاية في الرقة ... ومن غير شك قد صدر الاذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصدر في أحكامه ، وما كان في ذلك الا متبعا لقوله تعالى :

---

(١) التـوبة ٤٣ .
(٢) النـور ٦٢ .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(١) .

وهكذا الأمر في كل ما يماري فيه الممارون .

(٥)

ومع ذلك فاننا نريد أن نزيد الامر وضوحا في الفرق بين من يركز على «بشر» ومن يركز على «يوحى الي» لأهميته الكبرى، فنقص القصة التالية ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه في شرحه لقصيدة ولي الله : (أبو مدين) رضي الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد رضي الله عنه ــ وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد ؟

فأشير الى شيخ كبير في السن كان حاضرا هناك .

فقال له : هل سمعت شيئا من كلام أبي يزيد ؟

فقال : نعم سمعته قال : (من زارني لا تحرقه النار) .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك، وأبو جهل رأى النبي (ص) وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبي ، انما رأى (يتيم أبي طالب) ، ولو رآه (ص) لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه ، أي أنه لم يره بالتعظيم والاكرام والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا

---

(١) الأنبياء ١٠٧ .

المعنى لم تحرقه النار ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبي يزيد رضي الله عنه ، وانما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبي (ص) وانما رأى (يتيم أبي طالب) ..

هذه النظرة لأبي جهل هي التي نريد أن يتنزه المؤمنون عنها .

والمؤمنون ــ بحمد الله ــ لا يقعون في هذا الاثم متعمدين ، وانما يتسلل هذا الاثم الى بعض النفوس في صورة لا شعورية ، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ــ وكأنه لا شيء فيه غير البشرية .

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية، ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين، وفاتهم أن هذه النظرة لأبي جهل انما هي النظرة التي يتبناها المستشرقون والمبشرون في العصر الحاضر ، ليقللوا من شأن الرسول في نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول الا متابعين في ذلك زعيمهم الأكبر ــ في هذه النزعة ــ وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين انما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم في ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، وانما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !!.

ليس هناك اذن اجتهاد وخطأ وصواب ، وانما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبينا طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته

الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بهـا وليسوا أهـلا لها لفساد فطرهم وسوء نواياهم •

من الحقائق المعروفة أن الانسان يميل الى التركيز على : «بشر» أو على : « يوحى الي » حسب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذي لا ايمان له لا يرى الا البشرية ، ومن ضعف ايمانه يركز علـى البشرية ، ويخفف التركيز على البشرية كلما قوي الايمان ، ويزداد التركيز على : « يوحى الي » كلما ازداد الايمان ، حتى يصل الانسان الى ألا يرى أو لا يكـاد يرى الا « يوحى الي » •

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله •

وهناك اذن طرفان يمثلان فريقين من الناس • طرف : « بشرا » أو ، « قل : انما أنا بشر مثلكم » •

وطرف : « يوحى الي » أو « رسولا » ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا •

وان مقياس الايمان قوة وضعفا ، مقياس درجة الايمان الـذي لا يخطىء ، انما هو ما وقر في القلب أو غلب عليه ، من البشرية أو مـن : « يوحى الي » انهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان •

دع مـا ادعته النصارى فـي نبيهمو
واحكم بما شئت مدحـا فيه واحتكم

(٦)

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذي لا يرى أو لا يكاد يرى ، الا : « يوحى الي » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟•

ما هـي النظرة التي تنأى بنـا عن : « يتيم أبي طالب » لتقربنا من « الأسوة » ؟ كيف ينبغي أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ •

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلزم لها أن يصل الانسان الى مستواه صلوات الله وسلامه عليه أو الى ما يقرب من مستواه وذلك لا يتأتى •

بيـد أنه اذا استحال ذلك فانه مـن الميسور أن نورد صورتين ، احداهما : جاهليـة ، والأخرى اسلاميـة • والصورتان لسيدنا عمـر رضي الله عنـه •

أما الصورة الأولى : فانها « يتيم أبي طالب » كان سيدنا عمـر ، يراها قبل أن يهديه الله للاسلام ، وأراد سيدنا عمر أن يقتل « يتيم أبي طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعـاء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم أعز الاسلام بأحب هـذين الرجلين اليك : بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر فهداه الله للاسلام ، ولازم الرسول صلوات الله وسلامه عليه فناله من بركاته ومن خيره ما هيأه لأن يكون الخليفة الثاني للأمةالاسلامية أجمع ، وأن يعز الله الاسلام به في حياة الرسول صلوات الله وسلامـه عليه ، وبعد وفـاته •

ان سيدنا عمر هذا الذي لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذي كان اذا سلك طريقا سلك الشيطان طريقا آخر : خشية منه ورهبة ، والذي نزل القرآن أحيانا مصدقا لما رآه ، ان سيدنا عمر صاحب : « يا سارية الجبل » يرسم لنا صورة اسلامية لسيده وحبيبه وصديقه ونبيه ورسوله صلوات الله وسلامه عليه •

ولكن هذه الصورة : هي صورة سيدنا عمر ، انها تتناسب مع مستوى سيدنا عمر وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا علي رضي الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟.

ان الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله وسلامه عليه :

(وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(١) .

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » الا تفسيرا لما أشارت اليه الآية القرآنية الكريمة ، أيمكنك أن تتصور المدى الذي تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ، أستغفر الله وأتوب اليه .

ولنعد الى الصورة التي حاول رسمها صاحب : « ياسارية الجبل » ، لنعد اليها لنثبتها شارحين لبعض حوادثها ، موضحين لبعض أنبائها ، وسنجعل الايضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله (ص) ، سمع سيدنا عمر يبكي ويقول :

(بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتها) . يروي البخاري ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبا وكتب السيرة (حادث حنين الجذع) بعدة روايات ، وننقل هنا احدى روايات البخارى :

---

(١) القلم ٤ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان النبي (ص) يخطب الى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ)(١) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك في أولهم ، فقال عز وجل :

(وَإذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ)(٢) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون :

(يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنا اللهَ وأَطَعْنا الرسُولا)(٣) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تنفجر منه الأنهار فماذا (فليس ذلك) بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله .

ان نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه ، لم يحدث مرة واحدة وانما حدث عدة مرات ، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، في ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا احدى روايات الامام البخارى :

---

(١) النساء ٨٠ . (٢) الأحزاب ٧ . (٣) الأحزاب ٦٦ .

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : (عطش الناس يوم الحديبية، والنبي (ص) بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس) فأسرعوا وتكـاثروا (نحوه فقال : مالكم) ؟

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا من بين يديك . فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيـون ، فشربنـا وتوضأنا .

قلت : (كم كنتم) ؟

قال : (لو كنا مائة الف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة) . بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حـين سريت عليه الـى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك : (سنتحدث في فصل خاص عن الاسراء والمعراج) .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله ، احياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية فقالت لك الذراع :

(لا تأكلني فاني مسمومة) .

يروي ابن سعد في طبقاته :

(أخبرنا سعيد بن محمد الثقفي ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سلمة قال : (كان رسول الله (ص) ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت اليه يهودية شاة مصلية ، فأكل رسول الله (ص) منها هو وأصحابه، فقالت: اني مسمومة ، فقال لأصحابه : (ارفعوا أيديكم ، فانها قد أخبرت أنهـا مسمومة) قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل اليها الرسول (ص) فقال :

(ما حملك على ما صنعت) فقالت : أردت أن أعلم ان كنت نبيا لم يضرك وان كنت ملكا أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت ا هـ

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال :

(رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً)(١) .

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا ، فلقد وطىء ظهرك — تروي كتب السيرة أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه تبرزان — وأدمي وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول الا خيرا ، فقلت :

« اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » .

(لقد دمي وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت رباعيته في (غزوة أحد) . روى ذلك البخاري ومسلم . أما حديث :

(اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون) فقد رواه البيهقي في دلائل النبوة .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد اتبعك في قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لو لم تجالس الا كفؤا لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح الا كفؤا لك ما نكحت الينا ، ولو لم تواكل الا كفؤا لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا ، ونكحت الينا ، وواكلتنا ، ولبست الصوف، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .

---

(١) نوح ٢٦ .

هذه صورة .

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أي مطعن ، هذا الرجل هو : (هرقل) .

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يدعوه الى الاسلام فلم يهمل الكتاب ولم يمزقه ، وانما قرأه في عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل عما اذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول فقيل له : ان بالمدينة تجارا من مكة يعرفون محمدا باعتباره من مواطنيهم فأمر باحضارهم وكان منهم أبو سفيان .

وسأل هرقل عن أقربهم نسبا الى الرسول ، فكان أبا سفيان فقربه منه وأدناه وقال لهم : اني سائله عن أمور فان كذبني فكذبوه .

يقول أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى : لأنها واضحة من النتائج التي انتهى اليها هرقل :

ان هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة : بدأ — عن طريق الترجمان — يقول لأبي سفيان ، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ،

ومن أصحاب أبي سفيان : سألتك عن نسبه :

فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها •

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت : أن لا •

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيـــل قبله •

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟

فذكرت أن لا •

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه ؟••

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟

فذكرت أن لا •

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله •

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه •

وهم : أتباع الرسل •

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون •

وكذلك أمر الايمان حتى يتم •

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك هــل يغدر ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟ .

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق والعفاف .

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم : فلو أني أعلم أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

هذه الصورة التي كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكونها أو يكون مثيلات لها كل انسان اتسع أفقه ، ورحب تفكيره ، وكل انسان يصدق الله والحق : لا بد أن ينتهي بما انتهى اليه هرقل من قوله : « لو كنت عنده لغسلت عن قدميه » وانما يغسل عن قدميه، من أجل : «يوحى الي» اذ إن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد أن هذه النهاية التي انتهى اليها هرقل ، انما هي الشعار الدائم الذي لا ينتهي بانتقال الرسول الى الملأ الأعلى ، فالرسول حي بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه والغسل عن قدميه الآن أو بتعبير آخر احترامه :

انما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرا يتناسب مع اصطفاء الله له صلى الله عليه وسلم •

ولقد ركز هرقل نوعاً ما على الصدق والاخلاص ، والواقع أن صورة الصدق والاخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول (ص) ولم تعمه عصبية ، أو حسد أو هوى •

على أن صورة الصدق والاخلاص : كانت سمة من السمات التي اتصف بها الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه ، لقد لازمته طيلة حياته ، لقد كان مجرد الخبر يلقيه صلوات الله وسلامه عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة • فهذا أمية بن خلف — عدو لدود — يتلاحى مع سعد بن معاذ رضي الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ في حدة المناقشة : لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : انه (قاتلك) ويضطرب قلب أمية بن خلف ويسأل في لهفة وضعف وتخاذل : أو قال ذلك حقا ؟ فلما أكد له سعد ابن معاذ الخبر أسقط في يده وقال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، وقتل أمية بن خلف يوم بدر •

على أن هذه الصورة تتمثل في وضوح بيِّن حينما أعلن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقوني ؟ » •

لقد كانت اجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التي لمسوها فيه لقد قالوا :

« نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط » •

وصورة أخرى ، صورة لم يرتب لها ترتيب مروي ولم يؤد اليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ورفقة قريبة ، وانما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

انها الصورة التي كونتها عنه صلوات الله وسلامه عليه أم معبد الخزاعية ، وهي صورة لا تخص الجانب المعنوي منه وانما تتصل على الأخص بالجانب الظاهر ، وأردنا أن نثبتها هنا لنثبت بها (هيئة) وظاهرا بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والاجلال ، ان الصورة التي نثبتها الآن مجرد وصف ، انها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة الى المدينة يرافقه أبو بكر رضي الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبدالله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة قوية الأخلاق عفيفة تقابل الرجال ، فتتحدث اليهم وتستضيفهم ، وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول الله (ص) الى شاة في ركن الخيمة فقال :

(ما هذه الشاة يا أم معبد ؟) قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟ فقالت :

هي أجهد من ذلك .

قال : (أتأذنين أن أحلبها) ؟.

قالت : نعم بأبي أنت وأمي ان رأيت بها حلبا .

فدعا رسول الله (ص) بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال :

(اللهم بارك لها في شاتها) .

فامتلأ ضرع الشاة ودر لبنها ، فدعا باناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم وقال :

(ساقي القوم آخرهم) .

فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا عنها، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزا عجافا هزلى فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

(من أين لكم هذا ولا حلوبة في البيت) ؟.

قالت : لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت .

قال : والله اني لأراه صاحب قريش الذي يطلب ، صفيه لي يا أم معبد ؟

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف (طويل شعر

الأجفان) ، وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل أرج أقرن شديد سواد الشعر ، في عنقه سطح (ارتفاع وطول) وفي لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر (لا عي فيه ولا ثرثرة في كلامه) أجهر الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا له رفقاء يخصون به ، اذا قال استمعوا لقوله ، واذا أمر تبادروا الى أمره ، محفود (يسرع أصحابه في طاعته) ، محشود (يحتشد الناس حوله) . لا عابث ولا منفذ (غير مخرف في الكلام) .

قال أبو مع . : هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ولأفعلن ان وجدت لذلك سبيلا .

هذه هي الصورة التي حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمرو بن العاص فانه يقول في صراحة وصدق — عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضي فخنقته العبرات ، وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة في صورة مؤثرة — : (ما كان أحد أحب الي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه اجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لأني لم أكن أملأ عيني منه) .

والآن نريد أن نتساءل : ما هي الصورة التي نريد أن نرسمها في هذا الكتاب ؟.

نريد آن نقول : ان هذه الصورة التي نحاول رسمها ، ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة ، انها صورة نحاول جاهدين أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول : اننا لا نرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها ونحن هنا ، انما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ، معترفين بعجزنا ، ولكن أملنا كبير في أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع وأن تكون على ما فيها من عجز وقصور ، ممثلة لبعض ما نكنه لسيد ولد آدم : من حب وايمان ، وأن نكون بذلك شفيعة لنا عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التي نحاول رسمها فانه لا يغرب قط عن بالنا قول امامنا البوصيري رضي الله عنه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الأبيات ، التي تعبر عن الحقيقة تعبيرا صادقا :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى

للقرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد

صغيرة وتكل الطرف من أمم

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته

قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر

وأنه خير خلق الله كلهم

النسب الشريف

لم تزل في ضمائر الكون تختا ر لـــك الأمهـــات والآبـــاء

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتـــدأ منـــه ومختتم

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه الامام مسلم :

« ان الله ، اصطفى من ولد ابراهيم : اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل : بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة : قريشا ، واصطفى مـــن قريش : بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وهو صلوات الله وسلامه عليه : محمد بن عبدالله ، بـــن عبـــد المطلب بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي :

ويصل نسبة الى سيدنا ابراهيم غليه السلام :

ولا نريد هنا ، أن نتحدث عن النسب الشريف من ابراهيم عليـــه السلام ، الى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وانما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين من قصي :

قصي :

كان قصي عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة في عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة ، ورأى قصي : أن قريشا : انما هي الوارث الشرعي لاسماعيل فهي فرعته (١) وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ، ودعاهم الى اخراج خزاعة وبني بكر من مكة وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصي في تدبير الأمر واحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالا شديدا وكانت الغلبة في النهاية لقصي .

ولما فرغ من نفي خزاعة وبني بكر عن مكة ، تجمعت اليه قريش ـ حسبما يروي ابن سعد في « طبقاته الكبرى » ـ فسميت يومئذ قريشا (٢) لحال تجمعها ، والتقرش هو التجمع .

ومما يروى عن أبن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

« كان قصي بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي ، أصاب ملكا أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها الى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم حتى أن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فيما يشق درعها الا فيها ، ثم ينطلق بها الى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب

---

(١) سلالته .

(٢) قيل في سبب التسمية باراء غير ذلك .

لهم ، ولا في قوم غيرهم الا في دار الندوة : يعقده لهم قصي ، ولا يعذر (١) لهم غلام الا في دار الندوة ، ولا تخرج عير (٢) من قريش فيرحلون الا منها ، ولا يقدمون الا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ، ومعرفة بفضله، ويتبعون أمره كالدين المتبع : لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته ، وكانت اليه الحجابة (٣) والسقاية (٤) والرفادة (٥) واللواء (٦) والندوة (٧) ، وحكم مكة كله وكان يعشر (٨) من دخل مكة سوى أهلها :

قال : وانما سميت : دار الندوة لأن قريشا كانوا ينتدون فيها : أي يجتمعون للخير والشر ، والندى • مجمع القوم : اذا اجتمعوا (٩) •

وقسم قصي مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحي ، وضاقت مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر في الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر في الحرم ، فأمرهم قصي بقطعه ، وقال : انما تقطعونه لمنازلكم ولخططكم : بهلة (١٠) الله على من أراد فسادا •

وقطع هو بيده وأعوانه فقطعت ـ حينئذ ـ قريش ، وسمته « مجمعا » لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره •

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها ـ دار الندوة والحجابة والسقاية واللواء والرفادة ـ الى أكبر أبنائه سنا ، وهو : عبد الدار •

وكان من أبنائه : عبد مناف •

---

(١) لا يختن • (٢) قافلة •
(٣) سدانة البيت • (٤) سقيا الحجيج •
(٥) اطعام الحجيج • (٦) للحرب •
(٧) للمشورة • (٨) يأخذ منهم العشر •
(٩) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ •
(١٠) أي لعنته •

عبد مناف :

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف • أن رسول الله (ص) اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى عليه :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)(١) .

فانه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع اليه بنو عبد مناف تلبية لندائه قال لهم :

« ان الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، واني لا أملك لكم من الله حظا ، ولا من الآخرة نصيبا ، الا أن تقولوا :

لا اله الا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » •

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصي ستة نفر ، وست نسوة ، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف ، واسمه عمرو ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من هرقل ، من أجل أن تختلف الى الشام آمنة مطمئنة •

وهاشم هو صاحب ايلاف قريش ، وايلاف قريش هو : دأبها وعادتها : ولقد كان هو أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل احداهما في الشتاء الى اليمن ، والى الحبشة : الى النجاشي فيكرمه ويهديه الهدايا ، ورحلة

---

(١) الشعراء ٢١٤ .

الصيف الى الشام والى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويهديه الهدايا (١) .

ثم أصابت قريشا ، سنوات جدب عجاف ، ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم الى الشام ، فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله في الغرائر على الابل حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز ، يعني : كسره ، وثرده ، ونحر تلك الابل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة فأشبعهم، وكان ذلك أول الحياة بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك : هاشما .

وكان هاشم : رجلا شريفا طموحا ذكيا ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف في مكة — من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة — فحمل اللواء ضد بني عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للتنازل ، وعبئت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى الناس بينهم للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض الثراء ، وكان اذا حضر الحج قام في قريش ، فقال :

يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم (٢) فتجعل في موضع زمزم ، ثم يستقي فيها الماء من البئار (٣) التي بمكة ، فيشربه الحاج، وكان يطعمهم

---

(١) انظر طبقات ابن سعد .
(٢) حياض الأدم : هي حياض من جلد .
(٣) الآبار .

أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن ، والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى ، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم الى أن يصدروا من منى فتقطع الضيافة ويتفرق النـــاس لبلادهم ٠

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر ، كان منهم شيبة الحمد وهـــو عبد المطلب ٠ وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة والسقاية ، فلـــم يزل ذلك بيده ٠ يطعم الحاج ويسقيه في حياض من أدم ، الى أن حفر زمزم ، فأصبح يسقي الحاج مـــن زمزم ، ويحمل المـــاء من زمزم الـــى عرفة فيسقيهم بـــه ٠

وكانت زمزم سقيا من الله ٠

لقد أتى عبد المطلب في المنام آت ، فأمره بحفرها ووصف له موضعها فقيل لـــه ٠

(احفر طيبة) ٠

فقال : ومـــا طيبة ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال : (احفر برة) ٠

قال : ومـــا برة ؟

فلما كان الغـــد أتاه ، وهو نائم في مضجعه ذلك فقـــال : (احفر المضنونة) ٠

قال : وما المضنونة ؟

أين لي مـــا تقول ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال : (احفر زمزم) .

قال : وما زمزم ؟

قال : (لا تنزح ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم عند نفرة الغراب الأعصم) .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل الى الماء فكانت زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكماء قريش ، وتؤثر عنه سنن ، جاء القرآن بأكثرها كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق، والنهي من قتل الموءودة (١) .

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها ، وأمده جسما ، وأحلمه حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط الا أكرمه وشفعه ، وكان سيد قريش حتى مات » (٢) .

عبد الله :

أما عبدالله ، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقـــد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التي كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذي التزمه طيلة حياته ما عبر عنـــه هو بقوله :

---

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق .
(٢) انظر طبقات ابن سعد .

« أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « اني لأعرف فيك نسك أبيك » .

واذا نظرنا اذن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية والده وأسلافه ، ومن ناحية والدته وأخواله ، فاننا نجدهم ــ خلقــا وعراقة أصل ــ من أشرف بيوت مكة وأكرمها وأسماها، بشهادة المؤرخين جميعا: فكان صلوات الله وسلامه عليه ــ كما يقول ابن هشام :

« أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه وأمه » .

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :

« ما شعرت أني حملت به ، ولا وجدت له ثقلة ، كما تجد النساء ، الا أني قد أنكرت رفع حيضتي ، وربما كانت ترتفع عني وتعود ، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأني أقول : ما أدري .

فقال : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذلك يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندي الحمل ، ثم أمهلني حتى اذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال :

قولي : أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائي فقلن لي : تعلقين حديدا في عضديك وفي عنقك ، قالت : ففعلت .

قالت : فلم يكن ترك عليّ الا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعلقه .

ويقول أبو جعفر محمد بن علي : « أمرت آمنة وهي حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه :

« أحمـــد » •

ورأت أمه حين ولدته كأن نورا سطع منها أضاءت له قصور الشام :

وولدته صلوات الله وسلامه عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد ، لما أرادته الحكمة الالهية : من اخراج البشرية من الظلمات الى النور •

كان ميلاده تمهيدا لذلك ، بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، في هذه الفترة التي سبقت الرسالة ، أحاط رسول الاسلام بعنايته ورعايتـــه ، ليكون اهلا لأن يحمل أعظم رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للانسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله •

وفيمـــا يتعلق بأمر سلوك كـــل شخص بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين، وليحدد مسؤولية كل شخص في المجتمع : حاكما كان أو محكوما، زوجا كان أو أبا أو ابنا أو أخا أو رئيسا في العمل أو عاملا • الـــى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسؤول عن رعيته • فالامام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل في بيته راع ومسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعيـــة ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع ومسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته » •

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف ، وترمز الى ذلك كتب السيرة النبوية ، رموزا جميلة فتحدثنا :

« انه في ليلة ميلاده صلى الله عليه وسلم غاضت بحيرة ساوى ، وتصدع ايوان كسرى ، وخبت نار الفرس » .

أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فان مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام .

ان عمد الشرك هذه والضلال والانحراف والظلم والاستعباد !

بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح أمر النور والهداية والرشاد وشيك الظهور والانتشار .

وسمى المولود « محمدا » .

أما سبب هذه التسمية فانه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قيل له :

« ما سميت ابنك » ؟

فقال : « محمدا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : اني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم ، وذلك حسبما يروي السهيلي لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب — وقد ذكر حديثها علي القيرواني في كتاب : « البستان » .

قال : « كان عبد المطلب قد رأى في نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في الشرق ، وطرف في الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها (فقصها) فعبرت له بمولود

يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض » •

فلذلك سماه : محمدا ، وسمته أمه من قبل : أحمد فهو أحمد وهو محمد صلى الله عليه وسلم •

ولقد تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد عن أسمائه فقال فيما رواه الامام أحمد :

« أن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحي به الكفر ، وأنا العاقب » •

وقال فيما رواه الأمام أحمد أيضا ،

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبي الرحمة ونبي التوبة والحاشر والمقفي ونبي الملاحم » •

وكان من عادة العرب أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، فيرضعوهم في الصحراء المنطلقة مكانا وجوا ليشبوا في صحة تامة ، جسما وعقلا ومن أمثالهم : « العقل السليم في الجسم السليم » •

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء في مكة ، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة وعما صادفت فيها ذهابا وايابا ، وعما رأته من بركات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لقد كانت تقول :

« أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وهي في سنة شهباء لم تبق لها شيئا » •

قالت : فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا ، والله ما نبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه مـن الجوع وما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ، وكلنا كنـا نرجو الغيث والفـرج .

فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت (١) بالركب حتى شق عليهـم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منـا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله : محمد صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها (انه يتيم) وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم : وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك فما بقيت امرأة قدمت الا أخذت رضيعا غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله اني لأكره أن أرجع من صواحبي ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، ومـا حملني على أخـذه الا أني لم أجـد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به الى رحلي ، فلما وضعته في حجـري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي الى شارفنا تلك ، فاذا بها حافل ، فحلب منها وشرب وشربت معه ، حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة .

---

(١) جاءت بما تذم عليـه .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا ، تعلمين والله يا حليمة لقـــد أخذت نسمة مباركة .

فقلت : والله اني لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى أن صواحبي ليقلن لي :

يا ابنة أبي ذؤيب ويحك . أربعي علينا ، أليست هذه أتانك التـــي كنت خرجت عليها ؟

فأقول لهن ، بل والله انها لهي هي .

فيقلن ، والله ان لها لشأنا .

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد: وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت تروح على غنمي حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتـــى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتـــى مضت سنتاه وفصلتـــه .

وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه لم يمكث عندها عامين فقط: ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به الى مكة لتراه أمه وليراه جده ، ثم عادت به أشد ما تكون حرصا عليه وغلى العودة به .

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل الى بادية بني سعد مرة أخرى، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها مـــن مكة الى البادية بالبهجة والنشاط ، وبالأمل والتفاؤل .

ان الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الانسانية منذ أن وجدت الانسانية : تؤيد أن هناك اشاعات عند بعض الناس تضفي على المرافقين لهم بهجة ونشاطا ، فلا غرابة اذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها وتنشط دوابهما ، وأن تسير الرحلة في رخاء ، وأن يكون محمد في براءته وطهارته وفي طفولته الباسمة ونضرته المتألقة : هو سبب ذلك كله .

ويملأ محمد بيت حليمة بهجة وسرورا ، ويدب النشاط في جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه . ويبارك الله في كل شيء فيه . وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ويزيد حنانها عليه ، فينمو في جو من الرحمة والود والحنان : وينعرس كل ذلك في نفسه ويمتلىء قلبه الناشىء ببذور أسمى العواطف والشيم .

ويتحقق منذ طفولته — بل والى أن تنتهي به الحياة — ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما توفي عبدالله قالت الملائكة :

« الهنا وسيدنا بقي نبيك يتيما » .

فقال الله تعالى :

« أَنَا لَهُ حَافِظٌ وَنَصِيرٌ » .

نبي التوبة

عن حذيفة رضي الله عنه قال : فيما رواه الامام أحمد أن رسول الله (ص) قال عن نفسه :

« انه نبي التوبة » .

وللتوبة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفي الجو الاسلامي على وجه العموم شأن كبير ، ذلك أن التوبة انما هي تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الاخلاص .

وأهمية الاخلاص اذا نظرنا الى الفرد ، أو نظرنا الى المجتمع ، لا تخفى على أحد .

واذا نظرنا الى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من زاوية التوبة والاخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح : فان أول ما يفجؤنا من ذلك انما هو هذا الحادث الذي ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه اذ ذاك في بادية بني سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروي الامام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون الى أمه — يعني مرضعته — : أن محمدا قد قتل : فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ، فقد روى الامام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن ابي بن كعب : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله (ص) عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

« يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة » ؟ فاستوى رسول الله (ص) جالسا وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » :

« اني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر ، واذا بكلام فوق رأسي، واذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟

قال : نعم .

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا الي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه فأضجعاني بلا قسر (١) ولا هصر (٢)

وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره » .

فهوى أحدهما الى صدري ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له :

أخرج الغل والحسد فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ، ثم هز ابهام رجلي اليمنى فقال : اغد واسلم .

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير » .

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين أتاه آت بينما كان في الحطيم أو في الحجر مضطجعا بين النائم واليقظان ، أتاه فشق عن صدره ـ حسبما يروي البخاري ومسلم ـ واستخرج قلبه ! .

« ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايمانا ، فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد » .

---

(١) القسر : الاجبار .
(٢) الهصر : تني العمود من راسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهري ولم يكرهاني.

وتكرر المعراج فتكرر شق الصدر • فعن أبي بن كعب ـــ فيما رواه الامام أحمد والامام مسلم ـــ أن رسول الله (ص) قال :

« فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه في صدري ثم أطبقه » •

ولا يعنينا هنا لا في قليل ولا في كثير ، أن نجاري الماديين في جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر :

فالأمر أسمى بكثير من المماراة في الشكل ، والكيف ، والزمان ، والمكـــان •

والمغزى : أعمق من أن تتجاوزه الى المماحكات التي تشعر بضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين •

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التي توجه النظر الى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وان من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل •

ان الله سبحانه وتعالى ـــ وقد شاءت ارادته ، منذ الأزل ، أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ـــ أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكـــامل •

والانســان يبدأ الســير نحــو الكمــال : بطهـــارة القلــب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والاخلاص ـــ أو بتعبير آخر ـــ بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه، ولقد أرسل الله ملائكته، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه •

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه سكينة .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملأوه رأفة ورحمة .

فكان صلوات الله وسلامه عليه : رأفة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملأوه ايمانا .

ثم شقوا عنه فملأوه حكمـــة .

واذا كان رسول الله (ص) هو المثل الكامل للانسان الكامل ، فان لنا فيه أسوتنا ، والأسوة في شق الصدر انما هي : التوبة .

وتوبتنا الى الله اذن توبة نصوحا .: انما هـــي بمثابة شق الصـــدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين ، بل وعن جو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، هؤلاء الذين يقول الله فيهـــم :

(عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)(١) .

ان الله يعبر في شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا في جو : « مـــع الذين أنعم الله عليهم مـــن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصي : حد فاصل، وفيصل حاسم بين عهدين : عهد سيطرة الشيطان ، سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لـــواء عباد الرحمن الذين يقول الله في حقهم مخاطبا الشيطان :

---

(١) التوبة ١٠٢ .

(إنَّ عِبادِي لَيسَ لَكَ عَليهِمْ سُلطانٌ)(١) .

وبمجرد أن ينزع الانسان سلطان الشيطان في صورة من العزم المصمم وينطوي تحت لواء الله في صورة من اليقين المطمئن ، فان الله سبحانه وتعالى ، يتولاه ويتكفل به .

بل ان رعاية الله سبحانه وتعالى : تبدأ مع الانسان منذ أن يبدأ في الاتجاه اليه سبحانه وتعالى مباشرة ، وبدء الانسان في الاتجاه الى الله ، انما يكون بالاستغفار فاذا بدأ الانسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له ، يقول الله تعالى :

(إستَغفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كانَ غَفّاراً ، يُرسِلِ السَّماءَ عَليكُمْ مِدْراراً ، ويُمْدِدكُمْ بِأموالٍ وَبَنينَ وَيَجعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجعَلْ لَكُمْ أنْهاراً)(٢) .

وكلما ازداد الانسان اتجاها الى الله ، واقبالا عليه ، وتقربا منه وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

« ومن تقرب اليّ شبرا تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب اليّ ذراعا تقربت اليه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

ان حياة النفوس والعمل الصالح ، أهم عنصر لسعادة الانسان في حياته الدنيا وسعادته في الحياة الآخرة والله سبحانه وتعالى يبين ذلك في أكثر من آية في القرآن الكريم :

---

(١) الاسراء ٦٥ .
(٢) نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكرٍ أو أنثى وَهو مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجرَهُمْ بِأحسنِ ماكانوا يَعْملونَ)(١)

(وَلَوْ أنَّ أهلَ القُرى آمَنوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأرْضِ »(٢) .

(وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)(٣) .

التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايتـه ، واللبنة الأولى في أساس كل ذلك : انما هي : التوبة، أو هي : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه انه سبحانه وتعالى ـ فيما رواه الامام مسلم ـ : « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

ويقول سبحانه :

« قُلْ يا عبادِيَ الذينَ أسرَفوا على أنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُنوبَ جَميعاً إنَّهُ هوَ الغَفُورُ الرحيمُ ، وأنيبوا إلى رَبكمْ وأسلِموا لَهُ »(٤).

---

(١) النحل ٩٧ .
(٢) الأعراف ٩٦ .
(٣) الزمر ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الطلاق : ٢ ، ٣ .

وتوبة العوام انما هي من الذنوب والاثام ، أما الخواص ، فانهم لا يتوبون من الآثام والمعاصي ، فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه ، ومع ذلك فانهم يتوبون الى الله ويستغفرونه مصبحين ، ويستغفرونه سبحانه ويتوبون اليه ممسين ، بل ويستغفرونه ويتوبون اليه تعالى في كل وقت وحين : خضوعا له وخشية منه ، وتقربا اليه ، وخوفا من الكبر الخفي ، أو الغرور المستتر ، أو الغفلة التي قد لا يشعر بها الانسان •

لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في ترقيه الدائم ، وفي أنواره التي تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر الله ، ويتوب اليه استغفار عبادة وتوبة انابة وقربى • يقول صلوات الله وسلامه عليه ــ فيما رواه الامام البخاري ــ :

« والله اني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » • ويقول صلوات الله وسلامه عليه ــ فيما رواه الامام مسلم ــ :

« يا أيها الناس توبوا الى الله واستغفروه ، فاني أتوب اليه في اليوم مائة مرة » •

بيد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة ــ من عالم الغيب ــ ونؤكده لطلاب الايمان المطمئن : هو أن وسيلة ذلك : انما هي التوبة النصوح ، انها تستخرج حظ الشيطان ثم تأتي بالسكينة ، والتوبة النصوح : سبب مباشر ــ بتوفيق الله ــ لملء القلب ايمانا ، بعد أن امتلأ رأفة ورحمة ، ثم انها السبيل لتنزل الحكمة ــ وهي المعرفة اللدنية ــ أرسالا ، فيفيض بها القلب هداية وارشادا :

(واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ)(١).

---

(١) البقرة ٢٨٢ •

وان من التزم العبودية ــ واللبنة الأولى فيها انما هي التوبة ــ : فان الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علما •

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في سن مبكرة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه ــ كما تقول السيدة آمنة :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل » •

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها •

لقد كانت مكة ــ حينما كان رسول الله (ص) شابا فتيا قويا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ؛ وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك •

ذكر البخاري عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » •

أما هاتان المرتان : فلن سيدنا عليًا رضي الله عنه : يتحدث عنهما ــ على ما يروي ابن كثير ــ فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ــ ونحن في رعاء غنم أهلها ــ فقلت لصاحبي :

« ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان» ؟

فقال : بلـى •

قال : فدخلت حتـى جئت أول دار من دور مكـة ، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟

قالوا : تزوج فلان فلانة •

فجلست أنظـر ، وضرب الله على أذني ، فوالله مـا أيقظني الا مس الشمس •

فرجعت الى صاحبي فقال : ماذا فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت •

ثم قلت له ليلة اخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر ، ففعل فدخلت فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة •

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني الا مس الشمس •

فرجعت الى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شيء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته •

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان •

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام ، فان القصة التالية توضح الأمر :

عن ابن عباس ، قال : حدثتني ام أيمن ، قالت : كانت بوانه صنما تحضره قريش تعظمه : تنسك له النسائك ، ويحلقون رؤوسهم عنـــده ويعكفون عنده يوما الى الليل وذلك يوما في السنة .

وكان أبو طالب ، يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ؟

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع الينا مرعوبا فزعا فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال :

« إني أخشى أن يكون بي لمم (١) » .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مـا فيك ، فما الذي رأيت ؟

قـال :

« اني كلما دنوت من صنم منها : تمثل لي رجـل أبيض يصيح بـي وراءك (٢) يا محمد : لا تمسه » . قالت :

« فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحا مستفيضا وتوضيحا كاملا ، وتعبيرا تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

---

(١) مس من الجنون . (٢) ارجع وراءك .

« انه يوجد لهم قبل الوحي، خلق الخير والذكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » •

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفي الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في ازاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره •

ودعي الى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشي النوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شأنهم » :

ومضت فترة الشباب برسول الله (ص) وهو طاهر زكي : طاهر من الآثام التي تدنس الشباب في مجتمعاتهم ، وزكي لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه •

الوحي

ما قبل الوحي :

ان كتب السيرة لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل بعثته ، الا بالنزر القليل ـ القليل جدا ـ ويمكن تلخيص ذلك في صورة مجملة ـ كما يلي :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالي الأربع سنوات : عادت به حليمة رضي الله عنها ، الى أمه : آمنة بنت وهب . فلما بلغ ست سنين خرجت به الى أخواله : بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به في دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهرا .

ثم رجعت به الى مكة : فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت هناك ولم ينس الرسول صلوات الله وسلامه عليه المكان الذي دفنت فيه أمه . فلما مر في عمرة الحديبية بالأبواء قال : « ان الله قد أذن لي في زيارة قبر أمي » . ثم أتاه فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له ذلك ، فقال : أدركتني رحمتها فبكيت .

ورجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين كانا معهما .

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قبضه اليه جده : عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك : « دعوا ابني انه ليؤنس ملكا » .

ورآه مرة عبد المطلب بعيدا عن رعاية أم أيمن ، فقال لها : « يا بركة لا تغفلي عن ابني ، فاني وجدته مع غلمان قريبا من السدرة وان أهل الكتاب يزعمون : أن ابني هذا نبي هذه الأمة » .

ولما توفي عبد المطلب ، قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام الا في جنبه ، ويخرج فيخرج معه وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط ، وكان يخصه بالطعام. وكان اذا أكل عيال أبي طالب، جميعا أو فرادى لم يشبعوا، واذا كان معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكان يفضل من طعامهم ؛ وان لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لمبارك » .

واستمر أبو طالب في رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يسلمه قط ، ولم يخذله ، الى أن توفي للنصف من شوال في السنةالعاشرة من حين نبىء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى بصدد أبي طالب : أن العباس قال : « يا رسول الله أترجو لأبي طالب ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الخير أرجو من ربي » .

وفي هذه الفترة التي قبل البعثة : كان يتحاكم الى الرسول .

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم الى رسول الله في الجاهلية قبل الاسلام ، ثم اختص فى الأسلام » .

ومن الأمثلة المشهورة في ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم في الخلاف الذي كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فانه حينما انتهوا في بناء الكعبة الى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه ، واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بني شيبة . فيكون هو الذي يقضي بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله (ص) أول من دخل من باب بني شيبة فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ، ثم أخبروه الخبر، فوضع رسول الله (ص) رداءه، وبسطه في الأرض ثم وضع الحجر فيه ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان في ربع بني عبد مناف : عتبة بن ربيعة . وكان في الربع الثاني، أبو زمعة ، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة ابن المغيرة . وكان في الربع الرابع ، قيس بن عدي . ثم قال رسول الله (ص) : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله (ص) بيده في موضعه ذلك .

وفي سن الخامسة والعشرين ، تم زواجه صلوات الله وسلامه عليه وهناك نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منبه تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ ، أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا • وكل قومها كان حريصا على الزواج منها، لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتني دسيسا الى محمد ، بعد أن رجع في عيرها من الشام فقلت :

يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ « فقال ما بيدي ما أتزوج به » قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : «فمن هي ؟» قلت : خديجة ، قال : «وكيف لي بذلك ؟» قالت : قلت : عليّ ، قال : « فأنا أفعل » ، فذهبت ، فأخبرتها فأرسلت اليه : أن ائت ساعة كذا وكذا وأرسلت الى عمها فحضر وتزوجها رسول الله (ص) ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة •

وفي ظل الحياة الزوجية ، عاش صلوات الله وسلامه عليه ، عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ، ما كان يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى ، وهكذا نشأ (ص) ، طاهر النفس كريم الخلق ، مجانبا للمذمومات ، مجانبا للرجس •

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة ، فكانت شرحا وتفسيرا لما سبق أن تحدثنا عنه : من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه •

ولقد تمثل فيه في طور الشباب : النضج الكامل والرجولة الرشيدة•

لقد كان صادقا في حديثه ، عطوفا على من حوله ، معينا للضعفاء يكتسب ثقة كل من يخالطه •

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضوان الله عليها •

ولكنها رضي الله عنها : أحبته لشيء آخر هو : السمو الروحي وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفانية ، والاتجاه الــى الخالد مــن معالي الأمــور •

ان عناية الله : رافقته ، ولاحظته ووجهته فكان خيرا زكيا وكان أمة وحده وسط هذا الضلال الديني والأخلاقي الذي كان يملأ عــلى رجال مكة جميع أقطارهم •

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك •

ومن أجل ذلك سماه قومه (الأمين) •

لقد كان أمينا على نفسه : فلم يسلمها الى مهاوي الشرك أو الشهوة أو الرجس • وكان أمينا على الناس : فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس بالنميمة ، ولم يغتب •

وكان أمينا على الحديث اذا تحدث : فلا كذب ولا مغالاة •

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها •

انه : (الأمين) •• أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود ، ووضعه في الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقــع بينهم ــ كما قدمنا ــ ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة ، حينما رأوا محمدا وصاحوا انــه (الأمين) رضينا ، انــه محمــد •

الوحي : ولقد حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ، أي : (يتعبد) الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك • ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها •

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة في الضلال ليعتكف في غار حراء متعبدا حتى قالت العرب : « ان محمدا قد عشق ربه » ..

ولكن اما آن لهذا الضلال الذي يخيم على مكة أن ينقشع ..؟

أما آن لهذه الظلمة أن تنجلي ؟.

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم ...؟

أليس هناك أمل في قبس من نور . أو اثارة من علم ، أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى والرشاد !؟

ويلجأ رسول الله (ص) الى الله ، يستغيث به ، ويستعيذه ، ويرجوه ، ويلح في الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضي الأيام وهو في كفاح المستميت ، وجهاد المستبسل ، يتجه الى الله في الصباح . ويتجه اليه في الظهر ، ويتجه اليه في الآصال ، ويتجه اليه في مغيب الشمس ، ويتجه اليه حينما تلمع الكواكب .

انه مهاجر الى الله في كل لحظة ، وفي كل نفس من أنفاسه ، وفي كل طرفة عين. وفي كل نبضة قلب ، وفي كل همسة من همسات الضمير .

ان حياته كلها لله ، ومع ذلك فان الأيام تمر ، والسنين تمضي ولا يزال الظلام مخيما فوق أرجاء مكة ، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شارة الضلال وعلم الانحراف .

ويضاعف الرسول (ص) خضوعه وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاوز الأمل والخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء الى الله حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه في النهاية ، وكأنه صفاء من

الصفاء ، ونور من النور .. فلما استوت على الجودي ولما كاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ... وفي ليلة من الليالي . بينما كان الرسول (ص) معتكفا في غار حراء كعادته كل عام . وفي شهر رمضان المبارك ... تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذي يفصل بين الكسب البشري الموفق من جانب ، والاصطفاء الالهي والاجتباء الرباني من جانب آخر ـ أو بتعبير آخر ـ ذلك الحاجز الذي يفصل بين الولاية والنبوة .

لقد جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك . فقال :

(اقــرأ) .

قال : (ما أنا بقارىء) .

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال :

(اقــرأ) .

قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال :

(اقــرأ) .

فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

(إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ)(١) .

فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني : فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

---

(١) العلق ١ ، ٢ ، ٣ .

« لقد خشيت على نفسي » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف . وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة .

لقد كان ورقة : عربيا أصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروي صاحب الأغاني ـ : « أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان» .

طلب ورقة الدين ولم يكتف في طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية اذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية .

يقول الامام البخاري عنه :

« وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة في الأوساط المؤمنة :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز ، يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان اذ دان الشعوب له
والجن والانس تجرى بينها البرد (١)

(١) البرد : جمع بريد ، وهو : الرسول .

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد فقال :

« قد رأيته في المنام : كأن عليه ثيابا بيضا ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة : معروفا بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والاخلاص المخلص ، وقد كان في فترة بدء الوحي هذه : « شيخا كبيرا قد عمى ، أي انه مر بالتجارب الكثيرة في الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو الا حسن الخاتمة ، والعمل — ما استطاع — في سبيل الله .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه اليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن أخيك » .

فلما أخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى ، قال ورقة دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى » .

قال ذلك في يقين جازم ، وفي ايمان مؤمن .

أما الأسباب التي دعت ورقة الى هذا القول : فان منها لا شك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لقد كانت حياة طاهرة عفيفة ، كان صلوات الله وسلامه عليه عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ، وكان بعيدا عن أن يكون عبدا للدنيا .

ولقد سمع ورقة حديثا بعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق . وسمع هذا التعبير البريء عن عنصر المفاجأة في الموضوع . ان الحديث لا يتسم بمنطق مروى . ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة أيا كانت للتلبيس والزيف . انها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجأه في خلوة يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيهـا رضاءه ، وفاجأه بأمر لم يكـن له على بـال .

« اقـرأ » .

« ما أنا بقارىء » .

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له من جديد : « اقرأ » وتكرر ذلك .

ورجع رسول الله (ص) « يرجف فؤاده » .

لقد غمره الروع ، وما أن وصل الى المنزل حتى صاح :

« زملوني زملوني » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة رضي الله عنهـا ما رأى ثم قـال :

« لقد خشيت على نفسي » .

ان كل ذلك : برهان واضح على الصدق ، وعلى الاخلاص ، فاذا ما أضيف ذلك الى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول (ص) فان ثمرة ذلك : التصديق والايمان .

بيد أن النور الذي غمر ورقة ، انما كان اشعاع قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) » .

---

(١) العلق ١ .

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن •

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » !

لم يملك أن آمن بأن هذا الذي يتلى — انما هو : وحي من السماء •

ان : « اقرأ باسم ربك » • تنص على أن القراءة • لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة اقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وانما هي : باسم الله ، واذا كانت باسم الله ، فانها تفيد الشخص ، باعتباره فردا ، وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه : « وطنا » وتفيد المجتمع الاسلامي العام ، بل وتفيد الانسانية جمعاء •

واذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله : مصدر الخير والنور • كانت خيرا ، وكانت نورا في جميع الأرجاء وفي جميع الأزمان •

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب وانما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتيه الانسان في الجانب الايجابي وكل ما يدعه الانسان في الجانب السلبي •

ان هذه الكلمة الأولى : تريد أن تقول : « اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك •• أما اذا امتنعت عن حركة أو فعل : فينبغي أن يكون ذلك أيضا باسم ربك ويكون معنى الآية في النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسبابا وغايات لله سبحانه وتعالى » •

واذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى في الجانب الايجابي الذي يحث على القراءة ، والذي يحث على أن تكون القراءة باسم الله •

فان الجانب السلبي ، قد نزلت فيه ــ فيما بعد ــ آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

(وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ)(١)

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ، فهـو أيضا فسق • لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه اذن يجب الامتناع عنه •

أما الاقدام عليه فانه فسق يتفاوت فـي درجته من الرجس زيـادة ونقصـانا •

وهكذا يضعنا الاسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » أي منذ اللحظـة الأولى من تاريخه ، على قمة الاخلاص ، وعلى قمة الاحسان وفي خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق • فمـا دامت الحيـاة كلها لله : فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفاق ، والخديعة وارادة غـير الله بالأعمال •

---

(١) الأنعام : ١٢١ •

إقْرَأْ ... وَالتربيَة

ويقول الله تعالى في هذه الآية الأولى .

« إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خلَقَ »(١) .

ولم يقل : اقرأ باسم الله . ذلك : لأنه أراد سبحانه ، منذ البدء أن يشير الى أن هذا الدستور الالهي النازل من السماء انما هو تربية ، انــه ينزل باسم المربي ، وما دامت هذه التربية الهية المصدر فهي اذن محكمة الاحكام كله ، كاملة في جميع جوانبها ، وقد قال الله تعالى ، ــ فيما بعد ــ عن هذا الدستور :

(كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ)(٢) .

وقال الله تعــالى :

(لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ)(٣) .

---

(١) العلق : ١ .   (٢) هود : ١ .   (٣) فصلت : ٤٢ .

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الالهي على التوالي ، مبينا لكل هذه الجوانب مفصلا لها ، ولكن الله سبحانه وتعالى بيّن في هذه الآية التي بين أيدينا أن هذه التربية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد لأنها من الذي خلق ، ذلك أن الذي خلق ، فكوّن كل خلية في الجسم ونسّقها مع غيرها . لتؤدي ويؤدي المجموع وظائف معينة، هذا الذي فعل ذلك ، محيط علما بالانسان المربي ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق وانما هي تربية الخالق نفسه الذي أحاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج اليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع وعرف الخير والشر ، فتربيته اذن قيادة على علم وهداية ، على بصيرة، وهي من أجل ذلك كله « تربية خالدة » لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لأن الانسان ، هو الانسان أينما وجد وأينما كان ، لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب .

إقرأ... والاخلاص

حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى... لم يملك الا أن آمن، وماذا يمكن أن تقول، لشخص تجرد الى الله، وهو يدعوك أن تتجرد اليه سبحانه، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاها ، ولا زعامة ، ولا ملكا انه يراد أن تقرأ الانسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم في كيانها كله على أساس مـــن تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له ؟ أيمكن أن تقول له انك كذاب ، فما هو الصدق اذن ؟

أيمكن أن تقوله له : انك منافق، فأين هو الاخلاص ؟ ان هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماعها الى الايمان .

إقرأ ... والعلم

ونعود اليها من جديد ، ونرى اشارتها الى معان أجملناها فيما سبق ، ونريد أن نفصل فيها بعض التفصيل :

كانت : « اقرأ » دعوة آمرة ، الى الثقافة ، الى العلم ، الى الفكر ، الى البحث المستفيض في السماء وفي الأرض ، وفي الجبال والبحار ، وفي كل ما خلق الله تعالى ، من كائنات صغرت أم كبرت انها .. اقرأ باطلاق، انها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد : اللهم الا أن تكون باسم الله .

ولقد اتسم الاسلام ، منذ هذه الكلمة بالطابع العلمي : كلمة تجاور السمات الأخرى ، التي سنتحدث عنها فيما بعد : ان شاء الله تعالى .

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)(١) .

ذلك أحد شعارات المسلم ! ومن استوى يوماه ، فهو مغبون . ومن لم يكن الى زيادة فهو الى نقصان، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ان مداد العلماء المتقين ليوزن في ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء .

---

(١) طه : ١١٤ .

ان الله سبحانه وتعالى : قد امتن علينا في آيات كثيرة مـن القرآن بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر : وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء •

والامتنان الالهي بهذا ، معناه : دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا الى التوجيه الالهي ، فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة في نفع الانسانية ، ولكن العلم والمعرفة في الاسلام لا يقتصران على الجانب المادي ، لأن النظرة الحديثة الاسلامية أوسع بكثير ، وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التي تقصر العلم على الجـانب المادي •

ان العلم المادي : علم تسخير الكون يحث عليه الاسلام ، ولكنـه لا يقف عنده ، فغاية المسلم : تتمثل في قوله تعالى :

(وأنَّ إلى رَبِّكَ المنْتَهى)(١) .

وان : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى ، العـلم عبادة ، واذا كنا ــ كمسلمين ــ مدعوين الى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره في سبيل الله ، وتذليله رجاء مرضاة الله ، فنحن بهذا متجهون الى الله غير ناظرين الى هذا التسخير ، وانما الى الكون ، وبذلك : يكون التسخير نفسه عبـادة •

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها : فهجرته الـى مـا هاجر اليه (٢) » •

---

(١) النجم : ٤٢ .
(٢) من حديث البخاري باب بدء الوحي .

فالسيطرة علـى الطبيعة في الوضـع الاسلامي الصحيح هجـرة الـى الله •

انها قراءة باسمه ، فهي داخلة في نطاق : « اقرأ باسم ربك »

واذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد في أعمالك وفي أقوالك • والعلم في الاسلام على الوضـع الصحيح ، اذن : عبادة ، حتى فـي الجانب المادي منـه •

ولا يتأتى — ولن يتأتى — أن يقف الاسلام عقبة في سبيل العلم، وأن يتعارض الاسلام مع العلم الحديث •

ان مشكلة التعارض بين الدين والعلم ، انما نشأت في أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الاسلامية التي حثت الانسانية على التعليم، والتي ولد المنهج العلمي الذي يسمونه « المنهج الحديث » بين ربوعها والتي انشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أبحاثها العميقة ، وما من شك في أن الحضارة الاسلامية هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ؛ وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة •

ان المنهج العلمي الحديث في أوربا ، يرجع الى (روجربيكون) فهو الذي أذاعه ونشره في أرجاء أوربا •

ويتحدث الاستاذ (بريفولت) في كتابه « بنـاء الانسانية » فيقول عن (روجربيكون) :

انه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية في مدرسة ، اكسفورد على خلفاء ، العرب في الأندلس ، وليس ، لروجربيكون ولا لسميه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم

يكن ، روجربيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي : هي طرف من التحريف الهائل، لأصول الحضارة الأوربية ،

وكان منهج العرب التجريبي في عصر « بيكون » ، قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا (١) ،

يقول ، (بريفولت) أيضا :

لقد كان العلم ، أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج •

ان العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في اسبانيا لم تنهض في عنفوانها ، الا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده ، هو الذي أعاد الى أوربا الحياة بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوربية (٢) اه •

واذا كان الاسلام ، هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعي ألا يتعارض معه •

على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، انما هي مسألة وهمية اذا نظرنا الى حقيقة الأمر •

---

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام ، تاليف محمد اقبال ، ترجمة الاستاذ عباس محمود .

(٢) المصدر السابق .

وذلك أن العلم دائرته المادة والحس ، أما الدين ، فدائرته : (ما وراء الطبيعة) والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع فكيف يتعارضان •

ان ملاحدة العصر الحاضر يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن ، يضفي الألف عليها — وهي وهمية — صورة من ظلال الحقائق ، فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر ، ومن ذلك مسألة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فانه يختلف معها اختلافا جذريا حاسما في مسألة

العلم في الإسلام أوسع دائرة

واذا اقتصرت أوربا على العلم المادي ، فان الاسلام ، لا يقف عند ذلك ، وانما يوجه الانسانية الى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، هو القلب أو هو الروح والبصيرة .

ان الاسلام يوجه الانسانية الى المعرفة الاشراقية ، أو الكشفية أو الالهامية ، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمي الحديث الى الاتجاه البصيري في قوله :

« إنَّ السَمْعَ ، والبَصَرَ ، والفُؤادَ كُلُّ أولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْئُولا »(١) .

فالسمع ، والبصر ، هما أساس العلم المادي ، علم التجربة والملاحظة . أما القلب : فانه أساس العلم الالهامي .

ان الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم الى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضا الى الاستشراف ، للهداية والنور القلبي عن طريق الخلق الكريم ،

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

والتقوى ، والاخلاص ، وحب الانسانية ، والمعاونة في الخير .

واذا كان الاسلام ، أوسع نظرة ، في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل، فانه يختلف معها اختلافا جذريا حاسما في مسألة الارادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث ، وفي اتجــاه الغايات والأهــداف .

ان الحضارة الحديثة تقول :

العلم لا صلة له بالأخلاق .

أو تقول العلم لا أخلاقي .

والعلم في نظرها ، لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الاسلام ، يجعل أسس العلم متسمة بالخير ، ويجعــل غايته منغمسة في الخير ، ويجعل من العلم قربى الى الله ، ويجعل منه عبادة لله انه سبحانه يجعله باسمه الكريم .

ان العلم في الجو الاسلامي قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الاسلام ، حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(١) .

تلك حقيقة في الدين الاسلامي ، سواء نظرنا الى أساسه أو نظرنا الــى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فانه (رحمة مهداة) .

---

(١) الأنبياء ١٠٢ .

الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة

مكثت الدعوة الاسلامية سرية (١) ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله وسلامه عليه بالجهر بها ، فصعد على الصفا فقال :

يا معشر قريش •

فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا •

فقالوا مالك يا محمد ؟ :

قـال :

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟

قالوا : نعـم •

أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط •

---

(١) مرحلة سرية الدعوة ذات اهمية خاصة في منهج العمل مع الجماعة ؛ هي مرحلة اعداد القيادة المحلية .

قـــال :

« فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ٠

يا بني عبد المطلب ٠ يا بني عبد مناف ٠ يا بني زهرة ٠٠٠ حتى عدد الأفخاذ مـــن قريش ٠

ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين٠، واني لا أملك لكـــم من الدنيا منفعة : ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا : « لا اله الا الله » ٠

واذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا في وجوههم فانه كان مطمئنا واثقا مـــن أن حياته هي من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأي قريش فيـــه قبيحا ٠ لقد كانت حياته ، البراءة الكاملة ، والطهر التام وهذا مـــا دعاه الى أن يتحدى، في صراحة وأن يعلن في وضوح ، أن حياته تثبت صدق ما يقول ٠

ولو تمثلت الأمانة ـ الصدق والاخلاص ـ في كل من يحيطون به لما كان في حاجة الى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفي الاخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة ٠

وقد آمن بمجرد هذا الاخبار كثيرون ، لما توفر فيهم من الصدق والاخلاص لأنفسهم وللآخرين ٠ أي لما توفر فيهم من الأمانة ٠ لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته ولقد أقر بهذه الصفة ـ صفة الأمانة ـ أبو سفيان ، في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول :

سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال :

فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ٠

وسأل هرقل أبا سفيان أيضا عما اذا كان قد أثر عن محمد غــدر ؟
فأجاب أبو سفيان بالنفي •

فقال له هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغــدر •

أما اثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى وهي القرآن ، وتحدى العرب به ، لقد تحداهم به في عنف وتحــداهم متدرجا بهم ، اذ طلب اليهم :

أولا : أن يأتوا بمثله فقال الله تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(١) .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا من اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢) .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

« وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »(٣) .

---

(١) الاسراء ٨٨ .   (٢) هود ١٣ .   (٣) البقرة ٢٣ ، ٢٤ .

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله •

أما عن حياته صلوات الله وسلامه عليه : فان القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة •

لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس فيها •

وتحدث عنها في اشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلا عن ذلك ، نستنتج من الأخبار الكثيرة التي قصها عنه : جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقي الكريم :

١ ـ ولقد تجرد صلوات الله وسلامه عليه من كل مطمح دنيوي :

« قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلى اللهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »(١) .

٢ ـ ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، اربعين عاما ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة •

« قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ »(٢) .

٣ ـ ويطلب اليهم القرآن الكريم أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذي نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم :

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ »(٣) .

---

(١) سبأ ٤٧ .
(٢) يونس ١٦ .
(٣) سبأ ٤٦ .

ويشرح الزمخشري هذه الآية شرحا لطيفا فيقول ما ملخصه :

انما أعظكم بواحدة ، ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصا ، اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا : « ثم تتفكروا » في أمر محمد (ص) وما جاء به •

أما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجاري أحوالهم •

والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الانصاف ويكثر الاعتساف •

وقد علمتم : أن محمدا (ص) ما به من جنة ، بل علمتوه ، أرجح قريش عقلا ، وآسلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير •

، واذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية •

٤ ــ ويصف القرآن الكريم جانبا من جوانب حياته ، ويصف دعوته أيضا فيقول :

«وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ »(١) .

(١) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

واذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين ، فاننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقـول :

انه حتى لو فرضنا أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه كان يقرأ ويكتب، وأنه كان يتلو من قبله كتابا أو كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب • ذلك أن معاني الكتاب ومفاهيم الدعوة التي أتى بها ، والقواعد والمبادئ التي يبشر بها ، كل ذلك ، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ولا يجحدها الا الظالمون ، والظالمون في كل آونة يجحدون الحق ، وينكرون المنطق السليم •

٥ ــ ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

« وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم »(١) .

ان الدعوة الاسلامية : آيات بينات في منطق الحق ، وفي منطق العقول المستنيرة •

وها هو ذا (أكثم بن صيفى) ، أحد حكماء العرب : ينتهج بفطرته السليمة ، هذا المنهج من الاستدلال على صدق الرسول (ص) بدعوته •

يذكر (الآلوسي) أنه لما ظهر النبي (ص) ، بمكة ودعا الى الاسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشا » ، فأتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقال لهم ــ فيما قـال :

« ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره ، وكتابه : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى

(١) القلم ٤ .

توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف ـ عرف ـ ذوو الرأي منكم : ان الفضل فيما يدعو اليه ، وان الرأي ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« ان الذي يدعو اليه محمد ، لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا » .

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، هو المنحى الذي سار فيه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه ، حينما سأله النجاشي عن أمر دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم الى الحبشة مهاجرين اليها بسبب ما نالهم من تعذيب أليم، وأرسل القرشيون وفدا الى النجاشي ، فيه عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين الى مكة ، ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشي قال له عمرو بن العاص :

« انه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أي أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم.

فلما سمع النجاشي كلامهم ، رأى أن الحكمة ألا يسلم اليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال له :

أيها الملك : كنا قدما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ..

فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام — وعدد عليه أمور الاسلام — فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك .

ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم بكى النجاشي ، ثم قال :

ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت الى عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص فقال لهما :

(انطلقا : فلا والله لا أسلمهم اليكما) .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه المبادىء الاسلامية «أن هذه المبادىء حقة ، وأنها : آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله وسلامه عليه ، انما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام » .

وبعد : فان سيرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمبادىء الاسلامية من أهم الوسائل التي ينبغي أن يتجه اليها المبشرون بالدين الاسلامي لنشر الاسلام .

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق ، وجعل النظر في الدعوة ، احدى الوسائل التي تسلم مع غيرها من الملابسات الى اليقين بصدق الداعي ، هذا النهج الذي اتخذه هرقل والنجاشي ، هو النهج الذي أقره الامام الغزالي ، فانك اذا أكثرت النظر في القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه (ص) على أعلى درجات النبوة .

واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات ، وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله :

« من علم بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله :

« من أعان ظالما ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق في قوله :

« من أصبح وهمومه هم واحد ـ هو التقوى ـ كفاه الله هموم الدنيا والآخرة » .

فاذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه ، بأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أعلى درجات النبـــوة .

ان النظر الى الدعوة الاسلامية في نظـــر الامام الغزالي هـــو أحد الوسائل التي تثبت صدق الرسول (ص) .

وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال ، العالم الاجتماعي الكبير ابن خلدون، وهو يستوعب ـ في نظرة عامة ـ الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات ، وننقل هنا ما كتبه خاصا بموضوع الاستدلال بالدعوة ـ حينما تكون الدعوة خيرا محضا ـ كالدعوة الاسلامية ـ على صدق الرسول فيما يدعو اليه ، يقول :

ومن علامتهم أيضا :

دعاؤهم الى الدين والعبادة ، من الصلاة ، والصدق والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا في أمره الى دليل خارج عن حاله وخلته . وفي الصحيح :

ان هرقل حين جاءه كتاب النبي (ص) ، يدعوه الى الاسلام أحضر من وجد في بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قـــال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة، والعفاف الى آخر ما سأل ، فأجابه فقال :

ان يكن ما تقوله حقا فهو نبي ، وسيملك مـــا تحت قدمي هاتين : والعفاف الذي أشار اليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء الى الدين ، والعبادة دليلا علـــى صحة نبوته ، ولـــم يحتج الى معجزة فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة » .

وشيء آخر له مجاله الكبير في اثبات الرسالة ، ذكرته السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث (بدء الوحي) وهو : أن الله سبحانه حبب الى رسوله صلى الله عليه وسلم الخلاء فكان قبيل الوحي يغادر مكة، ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التي كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير .

يتركها ليخلو بغار حراء فريدا يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبدا خاشعا طالبا رضاه ، آملا في هدايته . كان يتحنث في هذا الغار ، أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ويتردد ليعود من جديد الى النسك ، والى العبادة .

لم يكن اذن يطلب مالا أو ثراء أو لذة مادية أو جاها أو مجدا عند الناس ، انه يطلب الهداية ويبحث عنها :

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحا بينا في قوله وسلوكه، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو : أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا في قومه ـ قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله (ص) جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء .

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله (ص) يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه :

فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله (ص) فقال :

(يا ابن أخي ، انك منا حيث قد علمت ، من البسطة في العشيرة ، والكمال في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها .

فقال رسول الله (ص) : « قل يا أبا الوليد أسمع » :

قال : يا ابن أخي : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه •

حتى اذا فرغ عتبة ، ورسول (ص) ، يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم •

قال : فاسمع مني •

قال : افعل •

قال : بسم الله الرحمن الرحيم :

« حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرحمنِ الرحيم • كتابٌ فصِّلَتْ آياتُه قُرْآناً عربيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون . بَشيراً ونَذيراً فأعرَضَ أكثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعونَ • وَقالوا قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعونا إلَيْهِ »(1) .

ثم مضى رسول الله (ص) يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه •

(1) فصلت : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

ثم انتهى رسول الله (ص) الى السجدة ، ثم قال : « قــد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس اليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » قال : « ورائي : أني سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله مــا هــو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هــذا الرجل وبين ما هو فيه : فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : « هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : انه لو عرض على محمد (ص) هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضا من زعماء قريش ، وينقضه أيضا الخبر الآخر الذي ترويه كتب السيرة :

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث ــ أخو بني عبد الدار ــ وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبدالله بن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه » :

« فبعثوا اليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم •

فجاءهم رسول الله (ص) سريعا ـ وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه » وكان عليهم حريصا : يحب رشدهم ويعز عليهم عنتهم ـ حتى جلس اليهم فقالوا له :

« يا محمد ، إنا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما آدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح الا جئته فيما بيننا وبينك •

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك ـ وكان يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي سأصبر لأمر الله ، حتى يحكم بيني وبينكم » •

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء وعن الدنيا كلها : تؤيده حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، من أولها الى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

« مَنْ كانَ يُرِيدُ الحياةَ الدّنيا وَزِينتَها نُوَفِّ إليهمْ أعمالَهُمْ فيها وَهُمْ فيها لا يُبخَسُونَ . أولئكَ الذينَ ليسَ لَهمْ في الآخرةِ إلاَّ النّارُ وَحَبِطَ مَا صَنعوا فِيها وَبَاطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلونَ »(١).

« مَنْ كانَ يُرِيدُ العاجِلةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعلنا لَهُ جَهنَّمَ يَصلاهَا مَذْمُوماً مَدْحوراً »(٢) .

« إعْلموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ، وَلَهوٌ ، وَزِينةٌ ، وَتَفاخُرٌ بَينكُمْ ، وَتَكاثُرٌ في الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعْجبَ الكفارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصفرّاً ، ثُمَّ يَكونُ حُطاماً وَفي الآخرةِ عَذَابٌ شَديدٌ ، وَمَغفرةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوانٌ ، وَمَا الحياةُ الدُّنيا إلا مَتاعُ الغرورِ »(٣) .

وعن جبير بن نفير رضي الله عنه قال : (دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله (ص) فقالت : القرآن) .

وحقيقة الأمر أن رسول الله (ص) كان في كل ما يأتيه وفي كل ما يدعه قرآنا مطبقا ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى :

« وَإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ »(٤) .

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ .
(٢) الاسراء : ١٨ .
(٣) الحديد : ٢٠ .
(٤) القلم ٤ .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : (أتى اليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم فوضعها ــ كما يروي هارون بن رباب ــ على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه فوقف رسول الله (ص) وقال :

« أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاه ــ شجر عظيم له شوك ــ نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا »

ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :

« مالي وللدنيا » ؟

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« عرضت علي الدنيا فأبيتها »

ولقد كان رسول الله (ص) ــ كما يروى عن أنس رضي الله عنه ــ : أحب انسان الى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا اذا رأوه لا يقومون له ، لما يعرفون من كراهيته له « أي القيام له » ويقول (ص) لأصحابه :

« ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » . ويقول (ص) لأصحابه وهم جالسون حوله :

« ان مما أخافه عليكم من بعدي : ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع الى الدنيا في مختلف جوانبها الا وهو يقرأ قوله تعالى :

« زُيِّنَ لِلناسِ حُبُّ الشهواتِ مِنَ النساءِ والبنينَ والقَناطيرِ المقنطَرَةِ من الذَّهبِ والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمةِ والأنْعامِ والحرْثِ ذَلكَ مَتاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عِندَهُ حُسنُ المآبِ »(١) .

عزوفه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا اذن : قضية هي من البداهة بحيث تفجأ في النظرة الأولى ، كل دارس لسيرته صلى الله عليه وسلم .

وحينما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات ، والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وانما ترك وراءه مبادىء الحق التي أوحاها الله اليه ، والتي مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل اقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحا لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادىء ، ويثقون بأنهم مكلفون — باعتبارهم من المسلمين — بنشرها واذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرا يتضوع رحمة ويشع نورا ، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

انه صلى الله عليه وسلم هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني فكان صلى الله عليه وسلم عازفا عن الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفيما يدع مرضيا لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتما .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى اخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) آل عمران : ١٤ .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : (أتي اليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم فوضعها — كما يروي هارون بن رباب — على حصير ثم قام اليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه فوقف رسول الله (ص) وقال :

« أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاه — شجر عظيم له شوك — نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا »

ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :

« مالي وللدنيا » ؟

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« عرضت علي الدنيا فأبيتها »

ولقد كان رسول الله (ص) — كما يروى عن أنس رضي الله عنه — : أحب انسان الى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا اذا رأوه لا يقومون له ، لما يعرفون من كراهيته له « أي القيام له » ويقول (ص) لأصحابه :

« ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » . ويقول (ص) لأصحابه وهم جالسون حوله :

« ان مما أخافه عليكم من بعدي : ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع الى الدنيا في مختلف جوانبها الا وهو يقرأ قوله تعالى :

« زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشهواتِ منَ النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطَرَةِ من الذَّهبِ والفضةِ والخيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحرثِ ذلكَ متاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عندَهُ حُسنُ المآبِ »(١) ٠

عزوفه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا اذن : قضية هي من البداهة بحيث تفجأ في النظرة الأولى ، كل دارس لسيرته صلى الله عليه وسلم ٠

وحينما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات ، والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وانما ترك وراءه مبادىء الحق التي أوحاها الله اليه ، والتي مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل اقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحا لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالا يؤمنون بهذه المبادىء ، ويثقون بأنهم مكلفون — باعتبارهم من المسلمين — بنشرها واذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرا يتضوع رحمة ويشع نورا ، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة ٠

انه صلى الله عليه وسلم هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني فكان صلى الله عليه وسلم عازفا عن الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عازفا عن الدنيا لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفيما يدع مرضيا لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقا حتما ٠

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى اخلاصه صلوات الله وسلامه عليه ٠

---

(١) آل عمران : ١٤ ٠

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعني الا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها في سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائما فـــي سبيل الله ، ومن أجـــل مرضاته ، وقـــد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهـــم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك في الخير واسعاد الانسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الاسلام والعلم ، وعن الاسلام وتسخير المادة ، وقلنا : ان ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله وسلامه عليه ، عن الدنيا : من أقـــوى الأدلة على صدقه ، وعلى الخلاصه .

الإسراء والمعراج

وترقى بـه الـى قـاب قوسـ
ـين وتلـك السيادة القعساء

رتـب تسقط الأمـاني حسرى
دونهـا مـا وراءهن وراء

ثم وافى يحدّث النـاس شكرا
اذ أتتـه من ربـه النعماء

يقول الله تعـالى :

« سُبْحانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المسْجِدِ الحرام إلى المسجدِ الأقْصى الذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا ، إنَّهُ هوَ السَّميعُ البَصيرُ »(1) .

---

(1) الاسراء : ١ .

ويقول سبحانه :

« والنَّجمِ إذا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنطِقُ عنِ الهوَى ، إنْ هوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ، وَهُوَ بالأُفُقِ الأعلى ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكانَ قَابَ قَوْسَينِ أوْ أدْنى ، فَأوْحى إلى عَبدِهِ مَا أوْحى ، مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأى ، أفَتُمَارُونَهُ على مَا يَرَى ؟! وَلَقدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرَى ، عِندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى ، عِندَهَا جَنَّةُ المأوَى ، إذْ يَغْشى السِدْرَةَ مَا يَغْشى ، مَا زَاغَ البصَرُ وَمَا طَغى ، لَقَدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى »(١) .

هذه هي الآيات القرآنية عن الاسراء والمعراج •

أما الأحاديث النبوية : فانها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا يكمل بعضها بعضا •

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فانه معروف عادة للمسلمين وانما الذي يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخلاقي فيه ، وجانب المغزى منه •

ولقد قدم ابن اسحاق ــ حسبما يروي ابن هشام ــ لحديث الاسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :

---

(١) النجم من ١ ، ١٨ .

« وكان في مسراه ، وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله، في قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد » .

ومجمل الأمر ، أن رسول الله (ص) بينما كان نائما ، أتاه جبريل ، فأيقظه وخرج معه ، فاذا أمامهما دابة بيضاء هي البراق ، وركبها رسول الله وسارت الدابة ، وجبريل معه ــ على حد تعبيره (ص) « لا يفوتني ولا أفوته » حتى انتهى الى بيت المقدس .

فوجد فيه ابراهيم ، وموسى ، وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله (ص) ، وصلى بهم ، ثم أتي باناءين ، بأحدهما : خمر وبالآخر لبن ، فأخذ رسول الله (ص) اناء اللبن، وشرب منه ، وترك اناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر » .

تروي كتب السيرة : أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أتاه ليلة الاسراء آت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه في صدره الشريف ثم أطبقه . ولما انتهى صلوات الله وسلامه عليه من بيت المقدس عرج به الى السماء وأخذ يرتقي سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعا الى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات » .

وحياه الله سبحانه وتعالى :

« السلام عليك أيها النبي ورحمة الله ربركاته » .

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » :

وفي هذه اللحظات الخالدة ، التي لا يتأتى أن توصف ، فرض الله سبحانه وتعالى ، الصلاة على الأمة الاسلامية .

عن ابن عباس رضي الله عنه ــ فيما رواه الامـام أحمد ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لما كانت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة، فظعت أمري، وعرفت : أن الناس مكذبي » .

قال فمر عدو الله : أبو جهل ، فجـاء حتى جلس اليه ، فقال لـه أبو جهـل كالمستهزىء :

هل كان مـن شيء ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

قـال : ما هـو ؟

قال : انه أسري بي الليلة .

قال : الى أيـن ؟

قال : الى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعـــم :

قال : فلم بر أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحـــديث ، اذا دعـــا قومـــه اليـــه .

قال : أرأيت ان دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

فانطلق أبو جهل الى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بني كعب بن لؤى .

قال : فانتفضت اليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا اليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتني .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اني أسري بي الليلة .

قالوا : الى أين ؟

قال : الى بيت المقدس ؟.

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعـــم .

فاذا بالقوم بـــين مصفق ، وبين واضع يـــده علـــى رأسه متعجبا للكذب ...

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت » .

قال : فجيء بالمسجد ، وأنا أنظر حتى وضع دون دور عقيل فنعته وأنا أنظر اليـــه .

قال ، فقال القوم ، أما النعت فوالله : لقد أصاب .

وعن الحسن ، أنه في يوم الحديث عن الاسراء ، ارتد كثـــير ممن أسلم ، وذهب الناس الى أبي بكر ، فقالوا له :

هل لك ، يا أبا بكر في صاحبك ؟؟

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة ! بيت المقدس ، وصلى فيـــه ، ورجع الى مكـــة .

فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه .

فقالوا لا : هو ذاك في المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فو الله ، انه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض ، فـــي ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال : نعـــم .

قال : يا نبي الله ، فصفه لي ، فاني قد جئته ؟

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لي حتى نظرت اليه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :

وأنت يا أبا بكر : « الصديق » فيومئذ سماه الصديق » .

هذا هو الهيكل الذي ترويه الكتب لهذا النبأ الجليل ! يسمعه قوم فلا يصل الا الى الجوانب الظاهرية منهم ، فيأخذون في الجدل الشكلي أكان ذلك في اليقظة ؟ أم كان ذلك في النوم؟ أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟

وهل كان ليلا ؟ أم كان نهارا ؟.

وهذه كلها صور من الجدل الذي يثور ، حينما يخف وزن الايمان في النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل الى أعماق قلوبهم فيتجهون في صورة طبيعية ، الى مغزاه العميق ، والى روحانيته السامية ، ويرون أن هـذا النبأ : ينطوي على توجيهات لا ينبغي أن يمر عليها الناس مر الكرام ... من هـذه التوجيهات :

١ ــ لقد كان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ خاتمة سلسلة من الأنوار التي يرسلها الله الى العالم بين الفينة والفينة لتهدي الى الرشاد ، ولتقود الى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات في معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم الى الكمال المرجو ، عن طريق الارشاد الالهي وكان الكتاب الذي أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وهـو : القرآن ، خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنا عليها .

ولأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : تخلق بأخلاق أكمل كتاب رباني ، فهو اذن : أكمل رسول (ص) .

من هنا كانت امامته ــ صلوات ألله وسلامه عايه ــ بالرسل والأنبياء في بيت المقدس ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه أكمل رسول ، كان من أجل ذلك : أقرب المقربين الى الله سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل الى ما لم يصل اليه بشر ، بل الى ما لم يصل اليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله وسلامه عليه الى : « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذي يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبيــاء والرسل في السموات ، ومــن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذي يدل عليه النبأ ، معنى مكاني ، فانه أيضا ــ بل وبطريق أولى ــ معنى روحي أي أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه في تساميه الروحي في كل لحظة مــن اللحظات قــد بلغ فــي معراجه الى درجــات تجاوزت ــ في روحانيتها ــ آدم في سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى عليهمــا السلام ، في سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام في سمائه الثالثة ... وهكذا حتى تجاوزت روحيا ابراهيم عليه السلام ، في سمائه السابعــة .

ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله الى سدرة المنتهى ، الى شجرة النهاية ، الى حيث لا يبلغ ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليــه .

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا مــن هذه الآفاق العليــا والسموات السامية ومن الرحاب الالهي ... ينزل بنا منحدرا ، فيجادل في الاسراء والمعراج : أكان رؤية .. أم كان يقظة ؟

أستغفر الله ، وأتوب اليه •••

ان ذلك الجدل ، ان دل على شيء ، فانما يدل على ضعف الايمان في قلب المجادل •

٢ ــ واذا كانت التوجيهات السابقة : انما كانت لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فنزداد بذلك تقديرا ، وحبا واتباعا، فان من هدى الله سبحانه وتعالى ، وتوجيهاته في نبأ الاسراء والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية التي تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق •

والواقع ، أن الأخلاق في جو الاسلام : مرتبطة بالدين ارتباطا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، انها جزء من الدين الاسلامي ، لا يتجزأ : مصدرها ، هو مصدر الهي رباني •

وبعض الناس في العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى •

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق : الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بيّن ، فالضمير يربى ويكون ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذي يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط ،

ان الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو اذن مقياس للأخلاق خاطىء •

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة ، كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة، انما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة اذن ، كأساس للأخلاق ، انما هي أساس غير مضمون •

وبعص الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة الشخصية ، أو الى اللذة ، أو الى المنفعة ، وكل هذا وارد الغرب الأوربي ، أو الغـــرب الأمريكي عندما انحرف هذا الغرب وألحد !؟

أما وارد الشرق الاسلامي : أو بتعبير أدق ، وارد الاسلام الالهي فان مقياس الأخلاق فيه : انما هو المبادىء الدينية ، انما هو آيات القـــرآن ، وانما هو الفضائل التي أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التي حددها القرآن في أسلوب عربي مبين •

وتحدث عنها نبأ الاسراء والمعراج في صور رمزية دالة هادفة مؤثرة، وبينتها السنة النبوية الشريفة :

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسراه فمر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : مـــا هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهـــم الحسنة الى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين•

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء •

فقال : ما هـــذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة •

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم •

فقال : مـــا هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد •

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب في قدر طيب ، ولحم خبيث نيء في قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النيء ويدعون النضيج الطيب •

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح : ومثل المرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتي رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح •

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها •

فقال : ما هذا يا جبريل !

قال : هذا مثل الرجل من أمتك ، يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها •

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء •

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة •

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع •

فقال : ما هذا يا جبريل !

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليهـا فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صـوتا .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ، فقـد كثرت غرفى ، واستبرقى ، وحريرى ، وسندسى، وعبقريى ، ولؤلؤى، ومرجانى، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتني ما وعدتنى .

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومـن آمن بـي وبرسلي ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بي شيئا ، ولم يتخذ مـن دوني أندادا ، ومن خشيني فهو آمن ، ومن سألني فقد أعطيته ، ومن أقرضني جازيته ، ومن توكل علي كفيته، انني أنا الله لا اله الا أنا لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا . ووجد ريحا منتنة .

فقال ما هذا يا جبريل !

قال : هذا صوت جهنم تقول ، رب آتني ما وعدتني ، فقد كثـرت سلاسلي ، واغلالي ، وسعيري ، وحميمي ، وضريعي ، وغساقي ، وعذابي، وقد بعد قعري ، واشتد حري ، فآتني ما وعدتني .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيــوم الحساب • .

قالت : قد رضيت •

فسار حتى أتى بيت المقدس •

٣ ــ ومن الثمار التي جنتها الأمة الاسلامية والتي كانت من مقاصد اذاعة النبــأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين ، انفصال كل هؤلاء عن الأمة الاسلامية الناشئة •

لقد كفر ــ عند سماع النبأ ــ من كفر بعد اسلامه ــ وارتد من ارتد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا الا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة •

ان هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة في جميع مظاهرها ، ان هــؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميــع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحــده ، ان هؤلاء المكيين الذين كان في تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة في نشأتها، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين، لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات نقول :

ان هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة •

ومن وسائل هذه التصفية : اذاعة نبأ الاسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ، وعن ايمان لا يتزعزع

مهما كانت الحوادث ، ايمان بصدق الرسول (ص) في كل مـا يأتي به ، بصدقه بمجرد انبائه .

والمثل الأعلى في كل ذلك : انما هو سيدنا أبو بكر ، حينما يعلن في غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انـه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهـار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الايمان المطلق بالرسول هو الذي جعله صلوات الله وسلامه عليه يطلق على أبي بكر رضوان الله عليه (الصديق) ، (الصديقية) مرتبة من مراتب الايمان لا ينالها الا من جاهد نفسه جهادا تخطى بـه ايمان العامة وسما في ايمانه درجة درجة الى أن أصبح قائما بالله متجها اليه عاملا على مرضاته في جميع ما يأتي وما يدع .

والأمة الاسلامية بأكملها : مطلوب منها بالنسبة الى أخبار رسول الله (ص) أن تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه تلقي بقيادها الى أخباره ، وتسلم نفسها الى أنبائه ، مصدقة تصديقا كاملا : تصديقا يحملها على العمل وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنـه تصديقا ايجابيا يحقق للأمة الاسلامية المجد الذي ترجو ، تصديقا ينفي عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا لنـداء أعـداء الاسلام . فأخذوا يشككون الناس في أقوال الرسول (ص) : في أحاديثه، وفي سنته زاعمين أنهم من المجددين ، وما هم في الواقع الا أبواق مـن أبواق المستشرقين والمبشرين .

ان هذه الأقلام التي تشكك في السنة وفي الأحاديث النبوية : ليست الا أقلاما مقلدة للمستشرقين لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ،

انما تحمل طابع التقليد وطابع الشك والتردد الذي يتنافى مع الايمان ، ويتنافى مع الصديقية .

٤ ــ أما ثمرة الاسراء والمعراج ، وأما هدية الاسراء والمعراج وأما أعظم المنح الالهية في الاسراء والمعراج ، أعظمها على الاطلاق ...

أما النعمة العظمى ، والتجلي الالهي الأكبر في الاسراء والمعراج فانه : الصلاة .

و يتأتى لنا ــ عجزا وقصورا ــ أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التي أنعم الله بها على الأمة الاسلامية في هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هي : الصلة به سبحانه ، وهي الكيفية ، وهي الطريقة ، وهي الوسيلة ، وهي اللحظات الجليلة التي تتم فيها الصلة وتتحقق .

انها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل ــ ويجب أن يكون كاملا ــ عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة . لتخلص النفس الى المنعم حتى تنعم في رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه .

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين انما هي : اقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك ، هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة التي يجري وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك في أن الصلاة ــ يقيمها الانسان ، كما أراد الله ورسوله ــ من أنجع الوسائل في القرب من الله ، انها : البراق الذي يجتاز به المؤمن ــ في سرعة سريعة ــ طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل اليه تعالى فينعم في رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الاسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما . هـي التي يجب أن تتنبه اليهـا ، وأن نأخـذ في تأملهـا والانسجام معهـا .

ان الله سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث في سورة النجم عـن آفاق عليا ، وعن أجواء الهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأماني حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعـن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن :

رتب تسقط الأمـاني حسرى   دونهـا مـا وراءهن وراء

ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، في عنف عنيف ، هوى بنا في سرعـة سريعة دون سابق انذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوى مـن الشرك . يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا فقال سبحانه بعـد أن ذكر هذه التجليات الالهية :

(أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّى، وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)(١).

لقد أرانا سبحانه : بهذه الكلمات : البشرية المسكينة في ضلالهـا الديني وفي انحرافها الذهني ...

ان كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عـن : أن الرسول (ص) أسري بجسمه وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى بـه يقظة أو مناما : انما هو بذلك ينحدر بنفسه مختارا من التجلي الالهـي ، ليهوي بها منتكسا الى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكسا من جو سدرة المنتهى ، الى الجو المادي : ومن مجالات النور السماوي اللألىء الى ظلمة الجدل وزيغ المماراة في الدين .

---

(١) النجم ١٩ ، ٢٠ .

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع الممارين، ولندع الله قائلين :

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا ، بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ)(١) .

(١) آل عمران : ٨ .

الهجرة

يا لجلال الايمان وثباته وقوته ..!

ان التاريخ : نادرا ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة ، لله ولرسوله . هجرة الى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر عما اذا كان مهجره سيستقبله مرحبا ويؤويه في ألفة ، أم أنه سيقابله بالجفوة والعداوة. هجرة لم يسهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان ..

ان التاريخ : لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالايمان ومن أجل الأيمان.

ولكن التاريخ الاسلامي حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فانه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الايمان ، وكثر الحديث عنه ، ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم ، وسجنوهم، وأرادوا فتنهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألوانا في سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله (ص) شفقة عليهم ورحمة !

« تفرقوا في الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار اليهم، الى الحبشة ، فهاجر اليها في بادىء الأمر طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردا .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم الى مكة معتقدا أن الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا الى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديدا .

فأذن لهم رسول الله (ص) ، بالخروج الى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان رضي الله عنه ، مخاطبا رسول الله (ص) :

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة الى النجاشى ولست معنا .

فقال رسول الله (ص) هذه الكلمة المؤثرة :

« انتم مهاجرون الى الله والي، لكم هاتان الهجرتان جميعا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النساء ثماني عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة،

مزودا بالهدايا الى النجاشى ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين الى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جـــديد .

« وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ »(١) .

ولم يفلح الوفد وعاد الى مكة بخفي حنين .

ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافيا تاما مع الانسانية ، فقد كتبوا كتابا تعاهدوا فيه على ألا يناكحوا بني هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الكاتب للصحيفة هو ، منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان مـــن تقدير الله تعـــالى أن شلت يـــده .

وبهـــذه الصحيفة ، وهذا العهـــد حصروا بنـــي هاشم في شعب أبي طـــالب .

وكان ذلك في أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لا يخرجون الا من موسم، الى موسم حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرا ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعا ومسغبة فلا ترق قلوبهم ولا يتأثرون ، واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الأمور ، من الشدة والقسوة ، تجري تحت سمع الرسول وبصره ، وكانت قريش ترسل له صلوات الله وسلامه عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته، فلا يجدون الى غايتهم سبيلا .

---

(١) آل عمران ٥٤ .

وما ترك رسول الله (ص) الدعوة قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهارا ، وكان يدعو في كل لحظة من لحظاته ، يروي الامام أحمد عن ربيعة ابن عباد ، وكان جاهليا أسلم يقول :

رأيت رسول الله (ص) ببصر عيني بسوق ذي المجاز يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » ، ويدخل فجاجها والناس متقصفون (١) عليه ، فما رأيت أحدا يقول شيئا ، وهو لا يسكت يقول :

« يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله (ص) بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته مستخفيا ثم أعلن في الرابعة ، فأخذ يدعو الناس الى الاسلام ، عشر سنين ، يوافي المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة ، وذي المجاز يدعوهم الى أن يتبعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى انه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، واذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة » .

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله (ص) عن الدعوة الى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والايذاء . حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الاسراء والمعراج وارتد من ارتد وثبت من ثبت وكان حادث الاسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على ايمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد ، وطائفة مشركة ، قد

---

(١) يجتمعون ويزدحمون .

أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العـزم على أن تقضي علـى الاسلام مهما طـال الزمن •

ولم يكد يعتنق الاسلام في هذه الفترة ــ فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة ــ مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون علـى ايمانهم ثبات أولي العزم، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهي وان كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فانها مع ذلك : كانت تربية قرآنيـة لرجـال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الاسلام ونشر دعوته •

واذا كانت المعسكرات قد تحددت في مكة ، كانت الفترة من الاسراء الى هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ••• كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهـذيب •

فان الاسلام في هذه الفترة لم يكن قد وقف راكدا ، بل بالعكس قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول في معسكره المكي كل عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها ــ في الطرف المقابل ــ الا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وانما عن طريق آخر • وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة اليها من جديد في ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة • لقد هيأ الله الأمر لانتشار الاسلام خارج مكة •

ويقول ابن سعد في الطبقات :

« أقام رسول الله (ص) بمكة مـا أقام ، يدعو القبائل الـى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى ويشتم، حتى أراد الله اظهار دينه ونصر نبيه وانجاز ما وعد فساقه الى هذا الحي من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة » •

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم الى الله ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به في العام القادم •

ولما عادوا الى المدينة . بشروا بالاسلام في قومهم فأسلم من أسلم وكثر في المدينة الحديث عن الاسلام •

فلما كان العام الذي يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا الرسول ـ كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم ـ : « على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف » •

قال : « فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك شيئا كان أمره الى الله : ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه » •

ان هذه البيعة بيعة فضيلة وخير، انها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها •

وانظر الى الدقة في قوله ولا نعصيه في معروف • انه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وانما قيد ذلك بقوله : « في معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ، فستقر ـ لا مناص ـ بأنها وثيقة الهية •

وعاد المسلمون الى المدينة بأخلاق أخرى ، ووجوه عليها نور الاسلام وبقلوب انغمست في محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون الى الله مبشرين ومنذرين •

ثم عادوا في العام التالي وهم سبعون أو يزيدون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان والتقوا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره •

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليـه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ، يمنعه والله منا من كان علـى قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقـد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقـلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة ، فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحـديث الصدقـة .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وانا والله لو كان فـي أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهـج أنفسنا دون رسول (ص) .

وقال : وتلا رسول الله (ص) عليهم القرآن ، ثم دعاهم الى اللـه ورغبهم في الاسلام وذكر الذي اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالايمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله : بايعنا فنحن أهل الحلقة (١) ورثناها كابرا عن كابر .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله (ص) : اخفوا جرسكم (٢) ، فان علينا عيونا وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثـم اذا بايعتم فتفرقوا الـى محالكم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثـم قال : أبسط يدك يا رسول الله .

---

(١) أهـل السلاح .　　　(٢) كلامكم وصوتكم .

فكان أول من ضرب على يد رسول الله (ص) فيما يقال — : البراء ابن معرور •

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله (ص) « ان موسى أخذ من بني اسرائيل اثني عشر نقيبا ، فلا يجدن أحد منكم في نفسه أن يؤخذ غيره ، فانما يختار لي جبريل » •

فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى مريم ، وأنا كفيل على قومي » •

قالوا : نعم •••

فقال رسول الله (ص) : « انفضوا الى رحالكم » •

ولما صدر السبعون من عند رسول الله (ص) طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما ، أهل حرب وعدة ونجدة •

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعا ، شكوا الى رسول (ص) واستأذنوه في الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي : « يثرب» فمن أراد الخروج فليخرج اليها •

وأخذ المسلمون يهاجرون سرا ، بادية عليهم آثار تربية الرسول صلى الله عليه وسلم من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق في سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا في جميع أحوالهم ، من جنود الله ، مهاجرين اليه للعمل على اعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون •

وما كانت الهجرة قط في نظر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في نظر أصحابه ركونا الى الدعة والهدوء ، أو ميلا الى الراحة والسكون •

وانما كانت ، محاولة مصممة على قيادة المعركة في سبيل الله من جهة أخرى •

وأخــذ المسلمون يهاجرون الـى الله ورسوله ، يهاجرون سرا ، جماعات أو فرادى ، حتى لم يبـق بمكة منهم الا رسول الله (ص) ، وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج •

وعندئذ آن لرسول الله (ص) أن يهاجر •

ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشارف مكة ، ينظر اليها على أمل واثق من أنه سيعود اليها مبشرا بدين الله عاملا أن يعم كل بيت فيهـا •

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله انك لأحب البلاد الى نفسي ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » •

ثم مضى هو والصديق الى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا يفلت المهاجران الـى الله مـن تنكيلهم •

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول (ص) وما كانوا يبالون قط بقتـل رجل أن يقول ربي الله •

ولقد كانوا احكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل ــ عليه لعنة الله ــ وعرضها على الوضع التالي :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما ، نهدا ، جلدا ، ثم نعطيه سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فـلا يستطيع بنو عبد مناف الوقوف في وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الديـة فنعطيهم اياها •

« وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خيرُ المَاكِرينَ »(١) .

دخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو وأبو بكر الغار مختفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزينا ، خوفا على الرسول صلوات الله وسلامه عليه فجاء النداء الالهي على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يملؤه ثقة وتفاؤلا :

« لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا »(٢) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التي تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : لو نظر أحدهم الى موضع قدميه لأبصرنا ، ويبتسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا خرج رسول الله (ص) وهو ورفيقه وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليالي خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما في الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججا بالسلاح على فرس تسابق الريح ، ليأسرهم حتى يفوز بالجائزة التي وعد بها المشركون من يأتي بالرسول (ص) قتيلا أو أسيرا .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله (ص) فرسخت قوائم فرسه فقال يا محمد : ادع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك وأرد من ورائي ففعل فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله (ص) فقال ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هاهنا وقد عرفتم بصرى بالأثر فرجعوا عنه .

---

(١) آل عمران ٥٤ .
(٢) التوبة : ٤٠ .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل الى المدينه ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة :

١ ــ بناء المسجد : المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم .

٢ ــ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقا لمبدأ من الدين الاسلامي ، يتمثل في قوله تعالى :

« إِنَّمَا المُؤمِنُونَ إِخْوَةٌ »(1) .

ويح قوم جفوا نبيا بأرض — ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع اليه — وقلوه ووده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار — وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت — ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ — ه ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا — قت اليه من مكة الأنحاء

(1) الحجرات : ١٠ .

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية ، ورمز روحي جميل ، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم في كل فترة من فترات حياته ، بل في كل نفس من أنفاسه ، ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التي لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، والهجرة بهذا المعنى الذي يتجاوز الواقع التاريخي ويتجاوز الزمان والمكان ، قد وردت في الأحاديث النبوية الشريفة ، وفي القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه البخارى رضي الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحي تتبينه في وضوح سافر فيما يلي :

يقول الله تعالى :

« إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ

إنَّ اللهَ مَعَنا ، فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ ، وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١) .

في هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى ، اخراج الكفار للرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة ، وهجرته مستخفيا في جنح من الليل مفارقا البلدة التي ولد بها . والتي بها عشيرته وقومه الى بلدة يجد فيها حرية الدعوة الى الله .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى ، يصوره بأنه انتصار في الوقت الذي كان فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئا في الغار هو والصديق رضوان الله عليهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون في كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك في أن الهجرة كانت انتصارا مبينا : لأنها فرار الى الله ، والفرار الى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل :

« وَالذِينَ هَاجَرُوا في سَبيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلوا أَوْ مَاتُوا ، لَيَرْزُقَنَّهمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وإنَّ اللهَ لَهُوَ خيرُ الرَّازِقِين»(٢).

ونحن مأمورون بالفرار الى الله ، أي بالهجرة اليه :

---

(١) التوبة ٤٠ .

(٢) الحج ٥٨ .

« فَفِرُّوا الى اللهِ ، إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبينٌ »(١) .

« إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي إنَّهُ هوَ العزِيزُ الحكِيمُ »(٢) .

« وَقَالَ إنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينْ »(٣) .

والفرار الى الله ، والهجرة اليه ، والذهاب اليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : انهم يفرون الى الله ويهاجرون اليه يوميا : فهو هدفهم وغايتهم في جميع أعمالهم ، واذا كانت هجرة بعض الناس انما هي الى دنيا يصيبها، أو الى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده ، متمحضة لوجهه الكريم ، واذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه للصديق : « لا تحزن ان الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين ، لا شريك له ومن كان كذلك فان الله ينزل عليه السكينة، أي طمأنينة النفس والرضا ويؤيده بجنود لا تراها الأعين : فيدخله في نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفي عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادىء البال سعيدا ولو ألقي في النار لأنه سوف لا يشعر بها الا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة اليه تعالى .

وأول مرحلة في سبيل الهجرة اليه سبحانه انما هي النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

(١) الذاريات ٥٠ :
(٢) العنكبوت ٢٦ :
(٣) الصافات ٩٩

« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فاذا ما توجهت النية بالأعمال الى الله تعالى كانت الأعمال هجرة اليه ، اذا لم تتوجه النية اليه ، فان الأعمال — ولو كانت خيرا في ظاهرها — تكون هباء منثورا .

ومن هنا يتبين للمؤمنين حقا فساد الأفكار التي يروجها الحائدون عن النهج الديني الصحيح من أمثال قولهم : ان العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير أو الخير لارضاء الضمير ان كان ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع ، لأن العلم والفن اذا لم يتجه بهما أصحابهما الى الله — أسسا وغايات — انحرفت بهما الارادات والنيات الى الشر والافساد : فشقيت بهما الانسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فان معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى الا عن طريق الدين وقد حاولت العقول — مستقلة عن الدين — تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل الى نتائج .

والمؤمن اذن يهاجر الى الله بعلمه ، ويهاجر اليه بفنه ، ويهاجر اليه بعمله الخير .

على أن العبادات الاسلامية على تعددها واختلافها ، انما هي تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة الى الله تسمو بالمؤمن صعدا الى الصلة بالله ، والى النعيم في رضوانه ، والى السعادة في رحابه ، فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة الى الوقوف بين يدي الله ومناجاته لحظة من الزمن — فهي هجرة الى الله .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس وقربى الى الله فهو ذهاب اليـــه •

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربا الى الله فهي ذهاب اليه •

أما مناسك الحج فانها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت في النداء الروحي الكريم : « لبيك اللهم لبيك » •

وختاما : فان الصورة التامة الكاملة للهجرة الاسلامية الكبرى انما تتمثل في أروع مظاهرها في قوله تعالى :

« قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ »(١) .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) جهاد في كــل ميادين الجهاد ، ونيـــة خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله •

فالى هذه الهجرة الكبرى أيها الاخوة المؤمنون فان فيها الخير كله •

وبالله التوفيق •

---

(١) الأنعـــام ١٦٢ ، ١٦٣ .

الجهاد

إن رسول الله (ص) الذي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه والذي كان في كثير من الأحيان يواصل الصيام ، هو الذي يقول : « والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغزو ، ولم يحدّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق » .

إن النبي العابد هو : النبي المكافح : وان نبي الرحمة : هو نبي الجهاد ، وما كان الجهاد قط في الاسلام، الا في سبيل الله ، فاذا ما خرج عن سبيل الله : لم يكن اسلاميا ، وكل ما في سبيل الله : إنما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردا وترتيبا وتفصيلاً ، وإنما نذكر منها عبرا ، حتى ننتهي الى فتح مكة :

وأول ملاحظة : هي أن الرسول العابد (ص) : لم يتراجع في غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال

الراسيات : لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت في مكانه في غزوة أحد التي غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه •

ووقف ثابتا في غزوة حنين، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم اذ ذاك، وكيف يمكن لأكمل رجل في الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟•

ولقد كان واضحا فيه صلوات الله وسلامه عليه ما يقوله سيدنا علي وهو من هو ــ بطولة وفروسية ــ : « كنا اذا حمي الوطيس أي الحرب : اتقينا برسول الله : (ص) أي احتمينا به ، فيكون أقربنا إلى العدو » •

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه الى الله تعالى • يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه بالنصر : يحكم الأمر إحكاما ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره في جميع أموره ، لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيما محكما ثم اتجه الى الله يدعوه ، وكان دائما متفائلا ، كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين •

لقد كان المشركون في غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون باذن الله •

وكان انهزام المسلمين في غزوة أحد : شذوذا في القاعدة ، وما كان ذلك الا لأنهم خالفوا ــ متأولين ــ أوامر الرسول (ص) ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة ، اذ أنه بعد أن انهزم المسلمون في غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم، والاستعداد فورا ، لخوض المعركة من جديد•••

ومـن مظاهر تفاؤله صلوات اللـه وسلامه عليه ، أنه في غـزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهـود والغادرون ليقضوا على الاسلام في المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليـه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجـالا . وقد كـان المسلمون : يعملون في حفر الخندق حماية لهم ، ومنعا من وصول العدو اليهم في هذه اللحظة الحرجة : يـروي البراء بن عازب رضي الله عنه : القصة التالية ، حسبما رواه الامام أحمد :

« أمرنا رسول الله (ص) بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فـي مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول فشكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ثم هبط الى الصخرة . فأخذ المعول وقال : بسم الله ؛ فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، واللـه اني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ، ثم قال بسم اللـه ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيـح فارس ، والله اني لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا ثم قال : بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر، فقال : الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل : الثقة والاطمئنان في المسلمين . وان كان قـد دعا الى السخرية في وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمدا يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة في الله لم تفارق الرسول قط في كفاحه الطويل الدائب الذي استمر الى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هي :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً »(١) .

إن آيات الفتح هذه ـــ نزلت في أثناء عودة رسول الله (ص) الى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين معتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، وقد نزلت تشير الى فتح مكة وتبشر به ، ولقد أوحاها الله الى رسوله ليلا ، فلما أصبح صلوات الله وسلامه عليه قال : لقد نزلت علي الليلة سورة : هي أحب الي مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى :

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا » :

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادي حربي وانما هي تشير ـــ على الخصوص ـــ الى الآفاق العليا من الرضوان الالهي . انها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التي شملت الماضي ، والحاضر والمستقبل ، والتي سمت بالرسول صلوات الله وسلامه عليه الى مستوى الرضا عن كل ما يأتي وما يدع .

إنها بشرى من الله بفتح مبين، وغفران شامل، واتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة، ونصر عزيز : وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وانما تفسر أيضا ـــ ومن باب أولى ـــ بالمعاني الروحية في أسمى صور التجليات الالهية ـــ اللهم لك الحمد والشكر ـــ

---

(١) الفتح ١ ، ٢ ، ٣ .

ولذلك فاننا حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وانما الذي يحتل ذلك انما هو المثل العليا : من الصور الاخلاقية النبوية ، والسمو النفساني ، الممثل في الرحمة المهداة من الله تعالى الى الانسانية : أي في سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ومهما يكن من شيء ، فان قريشا ، نقضت عهد الحديبية ، الذي كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسوله (ص) في أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ولا تشرك به شيئا ؟

(إن الشرك لظلم عظيم) .

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ؟.

لقد دعا سيدنا ابراهيم — في رحاب مكة — ربه مبتهلا ضارعا قائلا :

« رَبَّنا وابْعَثْ فيهِمْ رَسولاً مِنْهُمْ ، يَتْلوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ، وَيُزَكّيهِم ، إِنَّكَ أَنْتَ العزَيزُ الحكيم »(١) .

وها هوذا الرسول (ص) قد بعثه الله اليهم بالهدي السماوي ، فهل استجابت قريش لهدي السماء ؟.

---

(١) البقرة ١٢٩ .

وهذا البيت العتيق ، الذي رفع قواعده إبراهيم واسماعيل قائلين :

(رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم) (١) .

هذا البيت الذي عهد الله لابراهيم واسماعيل ، أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

هذا البيت : قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة — في وقاحة سافرة — الشرك بالله .

لا بد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لا بد من أن تسلم قريش وجهها إلى الله .

وصمم رسول الله (ص) في عزم لا يلين ، على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين : — أعني مكة — وأن يطهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود ، وعبثا حاول أبو سفيان الذي أرسلته قريش سفيرا بينها وبين الرسول — أن يجدد العهد الذي نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان — رغم دهائه ولباقته — عونا من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله (ص) ، التي بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله (ص) حتى لا يجلس عليه أبوها — زعيم المشركين وحامي الشرك في مكة — فلما سألها مستفسرا أرغبت به عن الفراش أم رغبت بالفراش عنه ، قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مغضبا قائلا : « والله لقد أصابك من بعدي شر » وأخطأ أبو سفيان فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

وهيأ رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — القوى وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من

---

(١) البقرة ١٢٧ .

الهجرة ، حتى اذا كان بالكديد ، واجتمع الناس اليه : أخذ إناء فشــرب منه ثم قال : « أيها الناس من قبل الرخصة ، فان رسول الله (ص) قبلها ، ومن صام فان رسول الله (ص) صام » (١) .

حتى اذا بلغ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ « مر الظهران » وهو مكان ــ بالقرب من مكة ــ أمر الجيش بالافطار لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والايمان .

وعسكر الجيش في مر الظهران، ولما رآه أبوسفيان ــ وكان قد أسلم منذ ساعات ــ قال بعقليته الجاهلية للعبـــاس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال العباس ، بعقليته الاسلامية : ويحك انــه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان : فنعم ، وتوجه رسول اللــه نحو مكة محذرا من اراقة الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة ، عزله النبي (ص) فقد كان رسول الله (ص) يريد أن يكون اليوم يوم المرحمة .

ودخل رسول الله (ص) مكة دون مشقة : وكــان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى ابراهيم عليه السلام، مصورا في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن ابراهيم والأزلام ؟

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ) (١) .

---

(١) هذه قاعدة وضعها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقاس عليها حالة الجيش الاسلامي في حروبه أيام رمضان .

(١) آل عمران ٦٧ .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه الى الأصنام ، فحطمها مرددا قوله تعالى :

(وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)(١).

وإذا كان رسول الله (ص) قد حطم الأصنام المادية ، فانه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبيَّن أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل لا يقصد الانسان به وجه الله ، فانما هو من أعمال الشرك : وفي هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله (ص) •

فانه ، حينما اجتمعت قريش اليه ، نظر اليهم وقال : « يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ » فقالوا : خيرا ! أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال وهو يبكي : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » •

أقول لكم ما قاله أخي يوسف لاخوته :

(..لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليومَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الراحِمِينَ) (٢) .

فكان هذا اليوم حقا يوم المرحمة •

وبالله التوفيق •

---

(١) الاسراء ٨١ .

(٢) يوسف ٩٢ .

النبي العابد

ألف النسك والعبادة	والخلوة طفلا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبا	نشطت في العبادة الأعضاء

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم انما هي :

« إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ »(١) .

ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ، ومفهومها وجوهها ـ شعارا عاما وتوجيها شاملا ، فما كانت تعني بروحها ، القراءة فحسب، وإنما كانت تعني : أنه ـ منذ هذه اللحظة ـ يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركا .

ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافرا فيما بعد ، لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله (ص) :

« قُلْ إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العالمِينَ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسْلِمِينَ »(٢) .

---

(١) العلق : ١ .
(٢) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ ،

على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ، اذا كان يتأتى الشمـــول والعموم بعد هذا .

إن اللـــه سبحانه قد أخبر في قرآنه الكريـــم : أنه ما خلق الجـــن والانس الا للعبادة ، يقول سبحانه :

« وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون »(١) .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التي يجب أن يعمـــل الانسان على تحقيقها اذن انما هي العبـــادة ، ومن هنـــا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة .

« أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلوكِ الشمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرآنَ الفجْرِ كانَ مَشْهُودا ، وَمنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافلةً لكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامَاً مَحْمُودا ، وَقلْ رَبِّ أدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِـــدْقٍ وَاجْعَلْ لي مِنْ لَدُنكَ سُلْطاناً نَصِيرا »(٢) .

« واسجد واقْتَرِب »(٣) .

« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيكَ اليَقينُ »(٤) .

---

(١) الذاريات ٥٦ .
(٢) الاسراء ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) العلق ١٩ :
(٤) الحجر ٩٩ .

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وإِدْبارَ النُّجُومِ »(١).

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ، إنه سبحانه الغني المطلق ، والفاتح المطلق ، والمعطي المطلق ، انه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغني ، انه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة الا لأجل تكميل الانسان فمن فضل الله على عباده ، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، انها راجعة اليه في الدنيا ، وراجعة اليه في الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكانُوا يَعْمَلُون »(٢) .

ومن عناية الله بالأمة الاسلامية ، وبرسوله الكريم : أن أول كلمات الوحي من الوحي : كانت توجيها للرسول وللمسلمين ، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كانأكلا أو شربا مثلا .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهذا التوجيه السامي الذي توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحي .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما فاجأه الوحي ، فعاد

(١) الطور ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) النحل ٩٧ .

يرجف فؤاده الى منزله الطاهر وقال : « زملوني : زملوني » ، نزل عليه قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا »(١) .

لم يقل له سبحانه : يا أيها المزمل لا تخش بأسا ، أو يا أيها المزمل لا ترع •

فان ذلك من عند الله ، وانما كان الرد على رجفة الفؤاد : أمرا بالعبادة •

وكذلك الشأن في كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل :

« فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى »(٢) .

وهنا علق سبحانه الرضى ، وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ، ويشير الله الى ذلك أيضا فيقول :

« فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ • وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ »(١) .

---

(١) المزمل ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٢) طـه ١٣٠ :
(١) ق ٣٩ ، ٤٠ .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة، للتوجيه الالهي : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ، اذ أنه كان يعملها بسم الله ؛ لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها ، بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته، بل جعل أنفاسه عبادة لله ــ سبحانه ــ فكان ذلك توجها به الى الله فكان عبادة له . وهذه الاستجابة الكاملة هي التي جعلت من رسول الله وسلامه عليه أول المسلمين .

أولهم منذ أن خلق الله العالم الى أن يطوي الله الأرض وما عليها باعتبار أن الدين عند الله ــ منذ الأزل الى الأبد انما هو : الاسلام .

لقد صير الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر .

واذا ما استحالت الى عبادة ، فقد استحالت الى قرة ، أرأيت حينما نجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ، ومن العمل عبادة، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعي على المعاش عبادة ، ومن ، ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ، وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟.

ومهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكرا لها ، فقال سبحانه :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ، وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ »(١) ...

---

(١) المزمل ٢٠ .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب من حياةالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومن وراء ايضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله وسلامه عليه أهداف :

١ ـ تأسي المسلمين به قدر الاستطاعة •

٢ ـ رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل في نفاسته العبادة، والنصيحة المجربة التي تسدى للشاك انما هي « صَلِّ » •

فالصلاة خير علاج للاضطراب الديني ، بل للاضطراب النفسي أيا كان •

ومتى وجدت النفس المطمئنة ـ والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها الا بالعبادة ـ فان الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول باقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم انه ـ باقرار أطباء الأجسام أيضا ـ لا يكون الانسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية •

٣ ـ وهذه الأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه التي نرجوها : ستكون أيضا سببا في تفريج الضيق المادي •

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ »(١) .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) الأعراف ٩٦ •

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) .

وهذه الأحاديث التي نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفه يعمل بها في فضائل الأعمال ، فانا قد تحرينا تحريا كاملا أن لا نذكر فيما يلي ــ الى آخر الكتاب ــ حديثا ضعيفا .

---

(١) النحل ٩٧ .

الصَّـلاة

عن السيدة عائشة رضي الله عنها : « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » ؟!

أما عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقد قال :

صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمـر سوء .

قيل : وما هممت به !

قال : همست أن أجلس « وأدعه » .

ولعل لابن مسعود رضي الله عنه عذره ، فقد كـان صلوات الله وسلامه عليه ، يقرأ في الركعة الأولى مثلا : سورة البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، وفي الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع،

ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ، حينما كان يفعله منفردا في جوف الليل . أما اذا كان مع الناس فانه يخفف .

وقد ورد في السنة الصحيحة : اطالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه القراءة في الركعات التي يصليها في الليل ، وبسبب هذه الاطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز احدى عشرة ركعة .

« عن عائشة رضي الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم : يصلي من الليل احدى عشرة ركعة ، فاذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » !

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : يستغرق في صلاته الليلية ويبكي .

ويقص مطرف بن عبدالله عن أبيه قال :

« أتيت النبي صلى الله عليه وسلم : وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعني يبكي » .

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

« ان بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضي الله عنه قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يتوضأ لكل صلاة ، قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزىء أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الصلاة : كان عند الاقامة يقول :

« أقامها الله وأدامها » .

« وكان صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة طأطأ رأسه » .

قالت عائشة رضي الله عنها : (لم يكن صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر) .

عن سماك بن حرب قال : (قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي منه الصبح حتى تطلع الشمس فاذا طلعت قام) .

(وكان صلى الله عليه وسلم يدخل في الصلاة ، فيريد اطالتها فيسمع بكاء الصبي ، فيتجوز في صلاته مخافة أن يشق على أمه) .

(وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بسورة « الجمعة » في الركعة الأولى و بـ « اذا جاءك المنافقون » في الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بـ « الطور » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في المغرب بـ « والمرسلات عرفا » وانها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق والقرآن المجيد » الا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس) .

كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في صبح الجمعة : « ألم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الانسان حين من الدهر » رواه الشيخان

من حديث أبي هريرة ، وانما كان يقرؤهما كاملتين ، وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية » .

وكان « يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده ، : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » .

« وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يقول بين التشهد والتسليم ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت » .

« وفي السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

« وعن حذيفة ، كان يقول صلى الله عليه وسلم في ركوعه : سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده ، سبحان ربي الأعلى » .

« وعن عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول ، في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن » .

رواه مسلم ، ومعنى يتأول القرآن : يعمل بما أمر به كما في قـــوله تعـــالى :

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا »(١) .

فكان صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفى ما أمر به في الآية » .

(١) النصر ٣ .

الصِّيَامُ

أما اذا جئنا الى رمضان ، والى الصيام ، على وجه العموم فالأحاديث التالية : توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التي رويناها ، انما بينت اشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر في أحاديث الصيام •

فرض رمضان في السنة الثالثة من الهجرة فتوفي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صام تسعة رمضانات •

عن عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » •

وعنها قالت : « كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأخير ما لا يجتهد في غيره » •

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى » •

« كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما » •

« اذا دخل العشر الأخير طوى فراشه واعتزل النساء واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحورا » .

« روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم : فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يواصلوا ، قالوا : انك تواصل ، قال : لست كهيئتكم اني أظل أطعم وأسقى » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر ، وهي ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضي الله عنها : « أربع لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعهن . صيام عاشوراء ، والعشر ـ أي تسع ذي الحجة ـ والأيام البيض من كل شهر : وركعتا الفجر » .

« كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس » .

« كان النبي صلوات الله وسلامه عليه ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر » .

ومن العبادة الذكر

« لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان صلوات الله وسلامه عليه يذكر الله على كل أحيانه » .

« مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره : مثل الحي والميت » . وأفضل الذكر قراءة القرآن :

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« ان الذي ليس في جوفه شيء من القرآن : كالبيت الخراب » .

« اقرأوا القرآن ، فانه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وبينما جبريل عليه السلام ، قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم

ولم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط الا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك : « فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته » .

ولأن لا اله الا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها في القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه :

« أفضل الذكر لا اله الا الله » .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » .

فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : « لا حول ولا قوة الا بالله » .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يقول بأعلى صوته : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة الله بالله ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

« ومن قال لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت لـه حرزا مـن الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا رجل عمل أكثـر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » .

« اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، فاذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال أدركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور . شطر الايمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله ، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نـور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها » .

« ان أحب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » .

« لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، أحب الي مما طلعت عليه الشمس » .

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الـى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

الدّعاء

وقال صلوات الله عليه وسلامه : « الدعاء هو العبادة » .

أما أحسن أوقات الدعاء فان الأحاديث التالية تذكر بعضها :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » .

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الدعاء أسمع ؟ قال : « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » .

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : « آمين ، ولك بمثل » .

« لا يزال يستجاب للعبد » ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول : « قد دعوت وقد دعوت فلم أره يستجيب لي فيستحصر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى، بدعوة الا آتاه الله اياها ،

أو صـرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقـال رجل من القوم : اذن نكثر ، قال : « الله أكثر » .

« كان صلى الله عليه وسلم ، يحب الجوامع من الدعاء ويدع مـا سوى ذلك » .

ومن جوامع دعائه ما يلي :

« أتاه رجل فقال : يا رسول الله، كيف أقول ، حين أسأل ربي ؟. »

قال : « قـل اللهم اغفر لي وارحمـني ، وعافني ، وارزقني ، فان هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم اني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا .

قلت : يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا ؟

فقـال : ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كـله ؟ . تقول : اللهم إنـا نسألـك من خير ما سألك منه نبيـك محمد ، ونعوذ بك من شر مـا استعاذك منه نبيك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت المستعـان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة الا بك » اهـ .

« اللهم اني أعوذ بك، من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء ».

« اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » .

عن شهر بن حوشب قال : « قلت لأم سلمة رضي الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » اهـ .

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي اليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » .

اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك .

« اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن يساري نورا ، وتحتي نورا ، وأمامي نورا ، وخلفي نورا ، واجعل لي نورا » .

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه في الصلاة :

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : علّمني دعاء أدعو به في صلاتي .

قال : « قل : اللهم اني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ، انك أنت الغفور الرحيم » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » .

« عن معاذ رضي الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال : يا معاذ : والله ، اني لأحبك ، ثم أوصيك : يا معاذ ، لا تدعن في دبر كل صلاة : أن تقول : اللهم أعني على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الافطار في الصوم :

« الحمد لله الذي أعانني فصمت ، ورزقني فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبَّل مني ، انك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب أيضا :

« لا إله الا الله العظيم الحليم ، لا إله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما اذا كان الكرب شديدا فيحسن أن يكرر الانسان دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف ، وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

واذا خاف قوما قال : « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل دينا أداه الله عنك ، قل : اللهم أكفني بحلالك عن حرامك ، واغنني بفضلك عمن سواك » .

وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال اذا خرج من بيته : بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال : له هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

عند النوم واليقظة :

« اذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا . واذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور » .

عند الأكل :

« الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة » .

عند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وإذا رأى الهلال :

« اللهـــم أهله علينا بالأمن والايمان ، والسلام والاسلام ، ربــي وربك الله ، هلال رشد وخير » •

وعندما ينتهي المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله الا أنت • أستغفــرك وأتوب اليك » •

وعندما يودع شخصا :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا فيقول : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » •

ومن العبادة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

والصلاة عليه أمر بها الله سبحانه في كتابه فقال :

«إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»(١) .

والصلاة على النبي تكون بأية صيغة ، وكل الصيغ في الصلاة عليه مباركة ، والمأثور منها هي الصيغة التي في التحيات .

والذكر بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ثماره شتى ، وفوائده عدة، فضلا عن العبادة نفسها : ونذكر من هذه الصيغ صيغتين :

الأولى منهما للخروج من الضيق ، ولتيسير المعسر ، وللخروج من الشدة وللفرج على جميع أنحائه للوصول الى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله المغفور له الشيخ أحمد أبو هاشم وهي ما يلي :

---

(١) الأحزاب ٥٦ :

« اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرءوف الرحيم الذي أخبر عن ربه الكريم أن لله تعالى في كل نفس مائة ألف فرج قريب، وسلم » .

أما الثانية : فإننا نسميها الصيغة التجريدية ، لأنها لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهي قياس موفق على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر بـ « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته » ، والصيغة هي ما يلي :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك » .

وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضي صاحب الضريح المبارك في شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو في رؤية منامية ، وهي صيغه مباركة ، وإنا لننصح بتكرارها كلما أتيح للانسان ذلك .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله وسلامه عليه في سبب بعثته .

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

« بعثت بالحنيفية السمحة » اهـ .

أما هو صلوات الله وسلامه عليه فانه رحمة مهداة الى العالم .

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أني رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من تبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبي جهل وأتباعه المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفي ميزان التقوى على أنه :

« ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وان الله يبغض الفاحش البذيء » .

والأخلاق لا وزن لها بدون الاخلاص ، ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه في ذلك : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

« ان الله لا ينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » :

« دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة (١) » ومعناه : اترك ما تشك في حله واعدل الى ما لا تشك فيه » .

ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ .

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال ، عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

---

(١) قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال ، فما عملت فيها ؟ .

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال ، جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) .

ومن المنكر ، السبع الموبقات .

« اجتنبوا السبع الموبقات »

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟

قال : (الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات (١)) . الموبقات المهلكات .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

(لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحابيتم ؟ أفشوا السلام بينكم) .

---

(١) متفق عليه .

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله » .

(عن أبي بكر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم النحر بمنى ، في حجة الوداع : ان أموالكم ، وأعراضكم ودماءكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟) .

(سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر) .

(اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟) .

قال : (انه كان حريصا على قتل صاحبه) .

(المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر ! أن يحقر أخاه المسلم !) .

(المسلم . أخو المسلم ! لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ! ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه الله » .

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة

مـن كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيـا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا الى الجنة.

ومـا اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب اللـه ويتدارسونه ، الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمـة ، وحفتهـم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

« ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » ا.هـ .

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : اذا أتيت معسـرا فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه » .

عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتـى عليه قال : أين تريد ؟ قال أريد أخا لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال : فاني رسول الله اليك : بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة :

يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ؟ قال : يا رب كيف أعودك وأنـت رب العالمين ؟!

قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنــك لو عدته لوجدتني عنده ؟!

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني • قال يا رب : كيف أطعمك وأنــت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنــه استطعمك عبدي فلان فلــم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟!

يــا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال يا رب : كيف أسقيــك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمــت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ؟ » •

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه ، في العلم :

« من سلك طريقا يبتغي فيه علما ، سهل الله له طريقا الى الجنة ، « وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ا وان العالــم ليستغفــر له من في السموات ومــن في الأرض حتى الحيتان في المــاء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثــة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثــوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » •

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذي محرم » •

فقال له رجل : يا رسول الله ، ان امرأتي خرجت حاجّة ، وانــي كنت في غزوة كذا وكذا وقال : انطلق فحج مع امرأتك •

« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذي محرم » .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فى الجهاد :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه الا جهاد في سبيلى ، وايمان بي ، وتصديق برسلي ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه الى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ، والذي نفس محمد بيده ، ما من كلم (١) يكلم في سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كلم : لونه لون دم ، وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

---

(١) الكلم : الجرح .

من توجيهات القرآن

١

(أ) يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلى المُؤْمِنِينَ ، إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنفُسِهِمْ يَتلو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُم الكِتابَ والحِكْمَةَ وَإنْ كانوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين »(١) .

وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى ، تؤكد كلها أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت نعمة عظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى ، انما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك أن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، انما هو لسان صدق في تبليغ آيات الله فهو يتلوها على المؤمنين ، انه يتلوها عليهم بعد أن تلاها

---

(١) آل عمران ١٦٤ .

على نفسه ووعاها ، وتشربتها روحه ، فانطبع بها وعاشها ، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول صلى الله عليه وسلم مصدر تزكية لهم ، انه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح ــ من أجل ذلك ــ مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسي للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وأنه يتلوها ويحياها فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب ، انه لا يتلو فحسب وانما يعلم أيضا : انه يشرح ويفسر ويطبق ويقوم تطبيق الآخرين اذا انحرفوا ، وأنه يسلم القرآن .

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به وبعد أن أصبح وهو قرآنـــا ، لقـــد أصبح فكره قرآنا ، وأصبحت عواطفه قرآنا ، وأصبحت ارادتـــه قرآنا .

ولقد عبّرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » .

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها انما هي كلمة بدهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادىء يعتقد الناس أنها مجرد مبادىء نظرية يستحيل تحقيقها في الخارج لو لم تطبق فعلا ، ولو لم تتحقق واقعيا ، وكان لا بد من أن تتحقق بالفعـــل ، وكان لا بد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادىء : تتمثل فيها ذاتيا ، وتتمثـــل فيها من جهة تطبيقها على الغير وقيادة الغير الى الأخذ بها فـــي صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك : لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ..

(ب) بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق، كما يحب الله ـــ سبحانه ـــ لبني الانسان قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وحققها في ذاته ، وحققها في مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققها واقعيا ، هو في نفسه على أكمل ما يكون التحقيق تطبيقا في مجتمعه على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع، لأن لكل نظام من النظم حدا أدنى لا يتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحدا أسمى يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الاسلامية في حدها الأسمى في الرسول صلى الله عليه وسلم وكان بذلك ـــ بنص القرآن ـــ أول المسلمين .

وترسم الآيات القرآنية :

كيف ، ولم ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

« قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ »(١) .

لقد كانت أعماله وحياته كلها بل ومماته ، لقد كان كيانه كله حركة وسكونا حياة وموتا لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها الأدنى في الآلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

---

١ الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

لقد وجد المجتمع الاسلامي بالفعل :

ولقد انتفت بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا في الماضي أو يرون في الحاضر أن الاسلام مبادىء لا تطبق ، مبادىء نظرية ، مبادىء خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الاسلام بالفعل ، فوجد مجتمعا أسلم نفسه لله ، وان مجتمعا يسلم نفسه لله لا يتأتى أن تتمخض الانسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذي وجد انما كان ثمرة من ثمار جهاد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكفاحه في أن يخرج بالفعل الصورة التي أوحاها الله اليه ، لقد كان أثرا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله ولتزكية الرسول — صلى الله عليه وسلم — لمن حوله بمثله القرآني ، ولتعليمه — صلوات الله وسلامه عليه — القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القرآن وامتلأت به وصفت بصفائه، وتزكت به واستنارت بنوره ، ففاضت الحكمة أثرا من آثار الهداية التامة ونتيجة للنور يغمر القلب وللسناء يتلألأ في الفؤاد ، فان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعلم الكتاب ويعلم الحكمة ، وما الحكمة الا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ينير بها قلوبا ويرشد بها عقولا ويقرب بها عباد الله الى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فان الحكمة أيضا من عند الله ، يقول الله تعالى :

« وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً »(١) .

---

(١) النساء ١١٣ .

وما كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحي ، فآيات الله يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمةالتي أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الامام الشافعي رضي الله عنه :

فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا يشبه ما قال والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة، وذكر الله منّة على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز — والله أعلم — أن يقال : الحكمة ها هنا الا سنة رسول الله .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسولهوحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال : لقول فرض الا لكتاب الله ثم سنه رسوله، لما وصفنا من أن الله جعل الايمان برسوله مقرونا بالايمان به .

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على خاصة وعامة ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها اياه ، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

(ج) هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا المقال — هي الصورة التي تسناها سيدنا ابراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد من البيت واسماعيل فقال عليه السلام :

« رَبَّنَا وابْعثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنهمْ يَتلُو عَليهِمْ آيَاتِكَ

وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِم ، إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيم »(١) .

ولقد صادفت دعوة سيدنا ابراهيم ما قدره الله أزلا ، لقد وافقت التقدير الالهي الأزلي الذي أراد سبحانه به أن يكمل الدين ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان ، هو الدين ، الأزلي الخالد الذي لا دين سواه ، والذي يرضاه الله ولا يرضي غيره ، وهو الاسلام .

« اليَوْمَ أَكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمتُ عَليكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا »(٢) .

« إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَم »(٣) .

ولا يتأتى في عرف المنطق ، وفي منطق الحق ، وفي بداهة العقول ، أن يكون الدين الخالد شيئا آخر غير اسلام الوجه لله .

ومـا دام الرسول صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، ومـا دام الدين عند الله هو الاسلام ، فالرسول اذن أو المتدينين على الاطـلاق : انه وصل الى الدرجة التي سبق بها جميع من مضى، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتي بعده ، انه أول المسلمين في الماضي البعيـد والماضي الذي يبتدىء منذ بدء الانسانية .

وما من شك في أن آدم ــ عليه السلام ــ كان مسلما، ولكنه لم يكن

---

(١) البقره ١٢٩ .
(٢) المائدة ٣ .
(٣) جزء من آية ١٩ آل عمران .

أول المسلمين، ولقد كان نوح مسلما، ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا، كان الأنبياء جميعا ـــ صلوات الله وسلامه عليهم ـــ من المسلمين، ولكن لم يكن أحـــد منهم أول المسلمين ، وما كان يتـــأتى أن يكون أحدهـــم أول المسلمين، لأن الدين الذي جاءوا به ـــ صلوات الله عليهم وسلامه ـــ وان كان اسلاما ـــ فان الصورة الكاملة التامة للاسلام انما هي : القرآن .

« وَأَنْزَلْنا إليكَ الكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهيمناً عَليهِ »(١) .

ويقول سبحانه :

(وَاتّبعوا أَحْسنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)(٢) .

وهو أول المسلمين في الحاضر ، وهو أولهم في المستقبل ، الى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، والى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله .

---

(١) المــائدة ٤٨ .
(٢) الزمر ٥ .

مِن توجيهات القرآن

- ٢ -

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الاسلامية وعن طابع الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »(١) .

لقد كان ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم ، رحمة ، اذا نظرنا الى الرسالة الاسلامية ، وكان ارساله رحمة اذا نظرنا الى شخصيته . يقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه الى الرحمن رسالة ، وينتسب الى الرحمن صفات ، وكان ينتسب الى الرحيم رسالة ، وينتسب

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

الـــى الرحيم صفات ، انه رسالة وصفات ، يسير في حياته ، باسم اللـــه الرحمن الرحيم ، مبشرا « باسم الله الرحمن الرحيم » ، انه نبي الرحمة ، وانها رسالة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى قد ربى رسوله على عينـــــه واصطنعه لنفسه فنشأه على الرحمة فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده •

واننا اذا أردنا تعبيرا مجملا جامعا لمعاني الرحمة التي اتصف بهـــا نبي الرحمة ، فاننا نجده في وصف السيدة خديجة رضوان الله عليهـــا للرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما فاجأه الوحي وحدثها به وقال لها : (لقد خشيت على نفسي) •

فقالت رضي الله عنها ، فورا :

(كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكـــل وتكسب المعدم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) •

ان هذا الوصف الصادق للرسول صلى الله عليه وسلم انما يعبِّر في كل جملة من جمله عن الرحمة (وهو وصف اتسم به الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته) والآية القرآنية •

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) لا تخصيص فيها ، لا من ناحية نـــوع الرحمة ولا من ناحية موضوع الرحمة • ويشرح هذه الآية فـــي شمولها وعمومها ، يشرحهـــا في دقـــة وفي عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوي • لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عـــن الرحمة ويدعو اليها ويعرف بمنزلتها من الدين • فقال بعض الصحابـــة رضوان الله عليهم : (إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا) •

فلم يرض هذا القول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه فـــهم قاصر محدود لما ينبغي أن يكون عاما شاملا ، انه تقييد للمطلق ، ولذلك

رد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما هذا أريد ، انما أريد الرحمــة العامة » • وما من شك في أن من الرحمة : رحمــة الأزواج والأولاد والأهل ، وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه •

بيد أن ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم انما هو أن تتغلغــل الرحمة في الكيان الانساني كله حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعتــه وجبلته فيكون الانسان وكأنه قبس من الرحمة الالهية ينثرها اذا سار وينثرها اذا جلس ، وينثرها أينما كان ، وينثرها حيثما حل •

واذا كان كذلك فانه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الاسلامية: رحمة للعالمين •

ولقــد حقق الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا الطابع بقولــه ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة وهي طابع للرسالة الاسلامية هي طابع تصرفاته وانظر الى الحادثة التالية ، الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى :

« مَا كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ »(١) .

وهي : لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأســر سبعون ، استشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنــي

(١) الأنفــال ٦٧ .

أرى أن تمكنني من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه (يعني العباس) فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة (أي ميل) للمشركين .

أما رأي الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان معروفا يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا بطابع الرسالة الاسلامية أنه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه أمثل الناس في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه بل زاده عليه حينما خيّر رسوله فيما بعد بأنه اذا وضعت الحرب أوزارها له أن يمن وله أن يأخذ الفداء .

« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »(١) .

وقبل بدر أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء فقد نادى في سرية عبدالله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

فلما كانت بدر سار رسول الله صلى الله عليه وسلم على سنته ، وتصرف مستلهما طابع الرسالة التي أرسله الله بها ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر الى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ في تقدير الفدية وزنا وكيلا وقيمة ومقدارا وكما وكيفا ، وأخذ في تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر ، ان بعض الصحابة نظر الى المسألة نظرة مادية فنزل قول الله سبحانه وتعالى، مصححا الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور في وضعها الصحيح ولم يزنوها بميزان التوجيه الالهي .

---

(١) محمد آية ٤ .

يقول الخطيب القسطلاني في كتابه (المواهب اللدنية) في ذلك :
(فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال ما كان لنبي غيرك) ا هـ .

ويقول القاضي بكر بن العلاء : (أخبر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من احلال الغنائم والفداء) ا هـ .

والتوجيه الالهي في خاتمة رسالات السماء أنها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها وما كان لنبي من قبل نبي الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبي الرحمة أباح الله له التصرف بحسب الرحمة وهو الفداء ، ثم زاده تكريما على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء .

وان كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادي ، ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياسا انه ليس بمقياس ان المادة ليست في موازين الله مقياسا ، فان الله يريد الآخرة ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله صلى الله عليه وسلم :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »(1) .

وإنه لمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وانما قال : « أسوة حسنة » وقال سبحانه : « أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

(1) الأحزاب : 21 .

ثم ان الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، « وما كان أيسر ذلك ولم ينقض الله سبحانه ما أبرمه رسوله المبرأ عن أن يسير الا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدي الا الى الصراط المستقيم صراط الله .

هذه الفطرة الرحمية حملت الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكافح طيلة حياته في غير فتور ولا هوادة لهداية الانسانية واسعادها . لقد كان صلى الله عليه وسلم يشق على نفسه في سبيل ذلك ويحملها من الأمور ما لا تطيق حتى لقد قال الله له :

« فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »(١) .

وقال سبحانه :

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً »(٢) .

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردي في نار يتهافتون على الاحتراق فيها ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحمية التي كان يستعملها الرسول . صلى الله عليه وسلم في سلوكه مع الناس وهي وان كانت خاصة برجل معين فانها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له مستفسرا متوددا : أحسنت اليك ؟ فقال الأعرابي لا ، ولا أجملت،

---

(٢) فاطر : ٨ .
(٣) الكهف : ٦ .

فغضب المسلمون وقاموا اليه ، فاشار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفـوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الأعرابي وزاده ثم قـال : (أحسنت اليك) .

فقال الأعرابي : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء مـن ذلك . فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب مـن صدورهم ما فيها عليك .

وتحدث الأعرابي اليهم وطابت أنفس أصحاب رسول الله صلـى الله عليه وسلم بقول الأعرابي ، فقال صلوات الله وسلامه عليه هـذا التعقيب الرائع :

(وان مثلي ومثل هذا الأعرابي : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها وأعلم ، فتوجه اليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها .

وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار) اهـ .

لقد كانت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيمة حتى مـع الأعداء .

لقد قيل له يوم أحـد وهو في أشد المواقف حرجـا لو لعنتهم يا رسول الله ، فقال ، صلوات الله وسلامه عليه : (انما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا) .

وكان اذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليـه الى الدعاء

له بالهداية والصلاح ، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم . سئل مرة : أي الناس أحب اليك ؟ فقال : (أنفع الناس للناس) . وسئل : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : (ادخال السرور على المؤمن) وقال : (أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله) .

وكانت رحمته . صلوات الله وسلامه عليه عامة شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال ــ يحث على الشفقة بالحيوان ــ (بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها ، ثم خرج منها فاذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له) قالوا يا رسول الله . وان لنا في البهائم أجرا ؟ قال (نعم ، لكم في كل ذات كبد رطبة أجر) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (دخلت النار امرأة في هرة حبستها فلا هي أطعمتها وسقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) .

لقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة ، وكان رحمة للعالمين .

خاتمة

في مقام الرسول صلى الله عليه وسلم في الآخرة •

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك؟! يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم النـاظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس،ألا ترون ما أنتم فيه الى مـا بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم !! فيقول بعض الناس لبعض : أبوكـم آدم ، فيأتونه فيقولون يا آدم : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا الى ربك ؟! ألا ترى الى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : ان ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وانه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي • نفسي • نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح • فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل الى الارض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما بلغنا ؟!•

ألا تشفع لنا الى ربك ؟ فيقول : ان ربي غضب اليوم غضبـا لـم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لي دعوة دعوت

بها على قومي ، نفسي • نفسي • نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون : يا ابراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، واني كذبت ثلاث كذبات ، نفسي • نفسي • نفسي ، اذهبوا الى غيري اذهبوا الى موسى فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، واني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها ، نفسي • نفسي • نفسي ، اذهبوا الى غيري اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا : نفسي • نفسي • نفسي ، اذهبوا الى غيري اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم • وفي رواية : « فيأتوني ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فانطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب • ثم قال : والذي نفسي بيده ، ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة : كما بين مكة وهجر • أو كما بين مكة وبصرى » •

وبعد فانا نختم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة العالية :

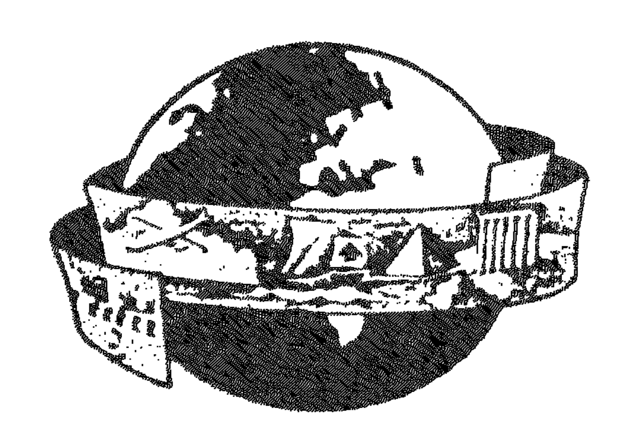
«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»(١) .

---

(١) الجمعة ٢ ، ٣ ، ٤ .

الفهرست

الموضوع	الصفحة



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت . ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي : ٣٩١٤٦٥٧ / ٠٢٠٢

ص.ب : ١٥٦ - الرمز البريدي : ١١٥١١ - برقيا : كتامصر

TELEX No: 23081 23381 22181 22481 ATT MR HASSAN EL ZEIN
FAX.(202).3924657 CAIRO EGYPT